منشورات بتانة

مذكرات

إبراهيم عبد العزيز

مذكرات عبد الرحمن

الأبنودي

(في طفولته وصباه)



IBRAHIM ABD EL AZIZ
ABDULLRAHMAN AL ABNOUDI DIARIS

إبراهيم عبد العزيز

مذكِّرات عبد الرحمن الأبنودي

في طفولته وصباه

مذكّرات عبد الرحمن الأبنودي

في طفولتـه وصباه

إبراهيم عبد العزيز

التّصميم الداخِلي: عصام حسـني

الطبعة الأولى، 2018

رَدمُك: 978-977-6233-50-8

رقْمُ الإيداع: 2017/8984

مـؤسسـة بتـــانـة

القاهرة

34 شارع طلعت حرب

عمارة يعقوبيان - شقة 25

ت: 49570 257 -202+

دبي

ص ب : 97721

ت: 971543446107+

www.battana.org



@battana.org

@Battana_

إبراهيم عبد العزيز

مذكِّرات عبد الرحمن الأبنودي

في طفولته وصباه

منشورات بتانة
الطبعة الأولى
٢٠١٨

فهرس

شهادة الأبنودي للمؤلف

إلى صديقي العزيز

إبراهيم أحمد عبد العزيز...

المحبوب المرغوب. الذي يقتحم من أجل

جواهر الذهب الضائعة غياهب الغيوب.

إلى الماضي

الراحل

والحاضر...

لبعض نتف من حياتي وأحوالي ورؤاي..

أقدمه له متواضعاً.. محباً

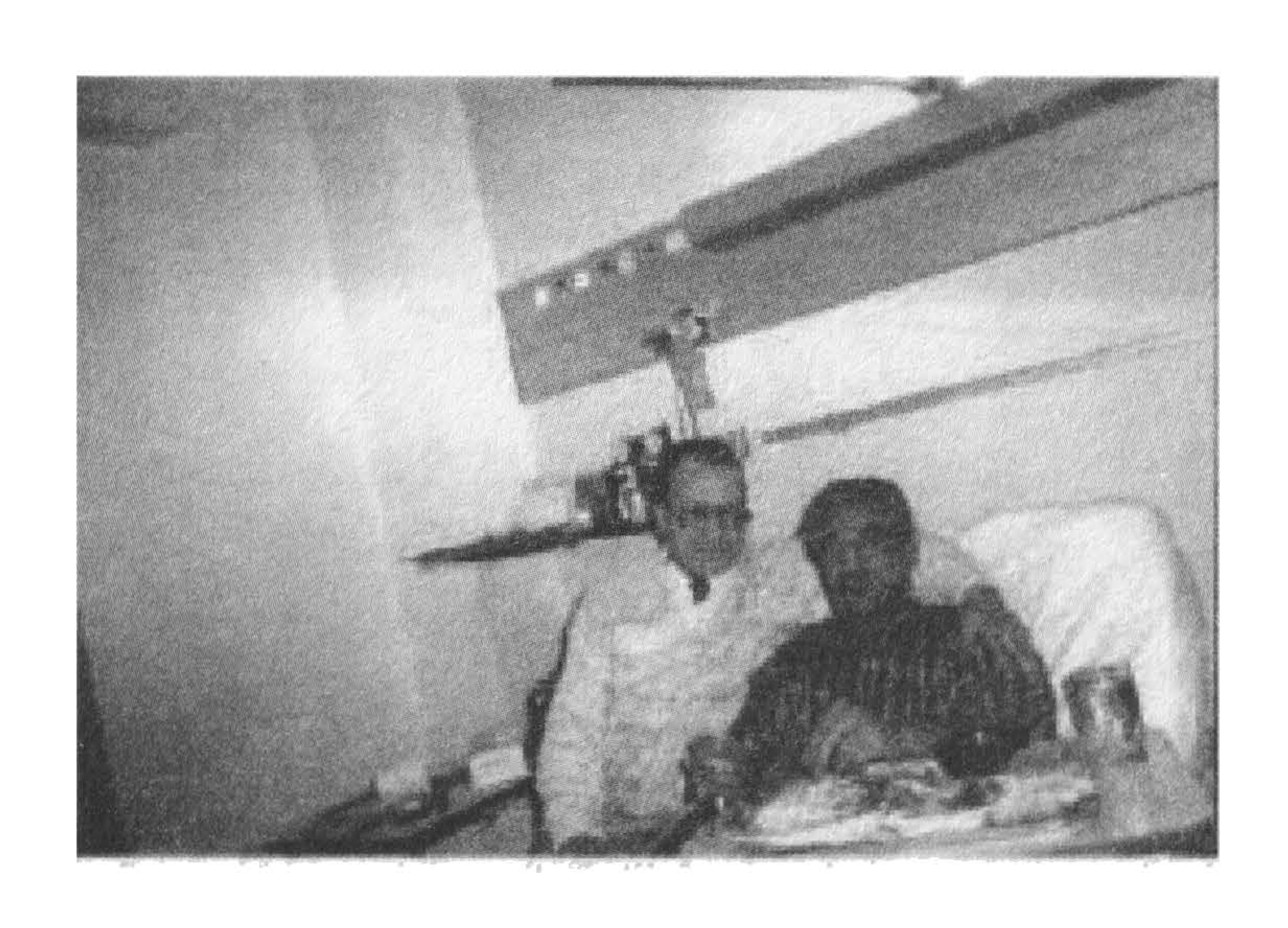
عبد الرحمن الأبنودي

١٩٩٨

القاهرة

آخر الليل

الكتابات النثرية



إبراهيم عبد العزيز مع الأبنودي أثناء مرضه بـ «قصر العيني» في تسعينيات القرن العشرين

إلى القلب النبيل

والقلم المتحمس

صديقي الحميم :

ابراهيم عبد العزيز

مودة

دائمة

[signature]

١٩٩٨

مقدمة

لم يتردد شاعرنا الكبير عبد الرحمن الأبنودي في الموافقة على كتابة سيرته الذاتية حين اقترحتها عليه: هو يمليها وأنا أكتبها، وأما سر اختصاصه لي بهذه المكرمة، فقد كشفها زميلي الفنان محمد العسيري في مقدمته للسيرة الغنائية للأبنودي، كبديل للسيرة الذاتية التي فكر فيها، بينما كنت قد بدأتها فعلًا، أو كما كتب: في عام ١٩٩٤ ذهبت إليه -الأبنودي- أطلب منه أن أكتب مذكراته.. نتحاور على فترات ونسجل ثم ننشر هذه السيرة بمجلة «الإذاعة والتليفزيون». يومها قال لي: «لقد بدأت فعلًا مع إبراهيم عبد العزيز.. أمليه وهو يكتب.. وبعدين يا عم محمد انت بتتدخل في الحكايات وتشقلبها تجيب أولها آخرها.. خليني مع إبراهيم مريحني ومريحه»(١)

فرحة ما تمِّت

وهكذا مضينا في كتابة سيرة الأبنودي، والتي كنت لفرط إعجابي وسعادتي بها، كنت أحكيها لزوجتي أولا بأول، حتى أن شوقها لحكايات الأبنودي كان يسابق شوقي؛ فقد كانت تنتظر عودتي لأحكي لها حكايات الأبنودي، ووجدتها تتفق معي تمام الاتفاق في أن سيرته أجمل سيرة لأديب؛ لأنها مختلفة ومتميزة عن بقية سير الأدباء الذين عرفتهم أو قرأت لهم، ولذلك كانت فرحتي لا توصف أنني كاتب يد الأبنودي الذي كلما التقيته ليحكي ويقص كان كأنه يكتب ولا يملي، فهو حريص على النقطة والفصلة، وينبهني أن أبدأ الجملة التالية في أول السطر.. وهكذا.. وكنت كلما افترقنا أتعجل بلهفة وشوق اللقاء التالي، فأنت في حضرة الأبنودي تستمتع متعة حقيقية، بلهجته وأسلوبه وحكاياته وتفاصيل التفاصيل كأنه روائي، إلى جانب كونه شاعرًا متميزًا.. فمتعة الحوار معه لا تقل عن متعة الاستماع إلى أشعاره؛ لقدرته على نسج كلمات النثر، كما هو مستطيع نسج كلمات الشعر بنفس القوة والقدرة والحرارة والصدق.. ولكنها فرحة ما تمت.

الغيطاني يتدخل

وإذا بالأبنـودي يطلـب منـي التوقـف عـن اسـتكمال كتابـة سـيرته الذاتيـة، أمـا السـبب الـذي لازلـت أتعجـب منـه ولـه حتـى الآن، وقـد رواه لي: حـكى لصديقـه الأديـب الأقـرب إليـه جـمال الغيطـاني أن ابراهيـم عبـد العزيـز يكتـب سـيرته الذاتيـة، فقـال لـه: هـذا نذيـر بنهايـة العمـر!

فقلـت للأبنـودي معقبـا: وهـل تعتقـد بهـذه الخرافـات؟ فقـال لي: لكنني تشاءمت.

وعبثًـا حاولـت أن أقنعـه أو أغـيّر موقفـه، رغـم ظنّـي أن الأمـر لم يتعـد الدعابـة مـن جـمال الغيطـاني، ولكنهـا أيقظـت بداخلـه -عـن غـير قصـد- هواجـس الأبنـودي التـي صارحنـى بهـا وهـو في الخمسـينات مـن العمـر: هـل سـيمتد بـه الأجـل لتربيـة ابنتيـه آيـة ونـور حتـى يراهـما عروسـيْن؟ كان هـذا مـا يشـغله؛ ألّا يمتـد بـه العمـر حتـى يقـوم بواجبـه الأبـويّ تجاههـما، بـل إن إبداعـات الأبنـودي في تلـك الفـترة كانـت باتجـاه المـوت -هاجسـه في تلـك السـن - قصائـده عـن فـؤاد حـداد، ومحمـود حسـن إسـماعيل، ويامنـة.

ولذلـك كان زواج الأبنـودي وإنجابـه في سـن الخمسـين هـو «تحـدٍّ للحيـاة»(٢)

ولعله قد استراح بعد أن أحسن تربيتهما، وعلّمهما أحسن تعليم. وكان يعتبر ابنتيه وأمهما السيدة نهال كمال أقمارًا تدور في فلك حياته وتضيئها حبا وأملًا، وتضيف إلى عمره أعمارًا جديدة، فكن يملأن حياته دفئًا وجمالًا، أو كما كتب يهديهن مختاراته من الشعر:

«إلى نهال كمال، زهرة النور، وإلى آية ونور، عطر الحياة»، أو كما وصفهن في إهدائه لنثرياته «آخر الليل» بأنهن «منابع الود والصفاء».

ثلاث جميلات

أتذكـر أن جـمال الغيطـاني حـين أسـس جريـدة «أخبـار الأدب» أراد أن يرصِّعهـا بحـوار مـع الأبنـودي، واقـترح عليـه أن يرسـل إليـه بصحفيّـة جميلـة، فقـال لـه الأبنـودي -حسـبما روى لي- إنـه لا يحتـاج إلى جميلـة لأن لديـه ثـلاث جميـلات -نهـال وآيـة ونـور-، وطلـب الأبنـودي مـن الغيطـاني أن يجـري الحـوار معـه إبراهيـم عبـد العزيـز؛ لأنـه يرتـاح إليـه -كـما قـال لي - وقـد ظلـت ابنتـا الأبنـودي هـما شـاغله، ولم يكن يسـتطيع أن يكتـم هواجـس العمـر، فـكان يـصرح بهـا في أحاديثـه الصحفيـة قائـلا: «المـوت طبيعـي، أنـا في سـني دي يعنـي رؤيتـي للحيـاة كلهـا تبقـى اتملكـت في إيـدي، وبعدمـا أنجبـت الطفلتـين الصغيرتـين آيـة ونـور، بقـى إحسـاسي بالمـوت قـوي؛ لأن عمـري مـا كنـت أعـرف الحيـاة مـن المـوت، بكـره مـن امبـارح، وكنـت عايـش، ومـن يـوم مـا جبـت آيـة ونـور بقيـت لمـا أبـص ليهـم أبـص للمسـافة بينـي وبينهـم، والإنسـان ينجـب عشـان يخـلِّي أولاده صـورة منـه، لكـن لمـا يبقـى ماعندكـش وقـت تخليهـم صـورة منـك وسـايبهم للدنيـا، كأنـه خطـأ، والإنسـان بعـد الأربعـين يقولـك صبـاح الخـير يـا محمـد، عمـك مـات، تقـول لـه إزيـك يـا عـلي،

يقـول كـده. أنـا مـش عـلي. أنـا أخـوه الصغـير.. عـلي مـات»[1].

ويتحـدث الأبنـودي مـع ذاتـه: «أقـول لنفـسي بـل بصـوت تسـمعه منِّـي هـي -ابنتـه- أحيانًـا، كيـف ستعيشـين طفلـة يكبرهـا أبوهـا بأكـثر مـن نصـف قـرن في عـالم جهنمـي كالعـالم الآتي الـذي نصنعـه مـن أجلهـا بإتقـان الآن في هـذه اللحظـة، وليـس حولهـا مـن حمايـة أو حراسـة كبـير أو صغـير، أهـلي أو حكومـي، وليـس في حوزتهـا مـيراث تشـتري بـه أمنًـا أو جـمالًا كـما يفهـم المصريـون الجـمال الـذي يشـترون بـه الكنـف والحضـن والـزوج العـصري».

لقـد أصبحـت نهـال زوجتـه، وابنتـاه آيـة ونـور، هـن سـيرته الذاتيـة الجديـدة والوحيـدة.

لقـد بـدأ الأبنـودي حياتـه البكـر الجديـدة، وهـو في الخمسـين مـن عمـره بعـد انفصالـه عـن زوجتـه الأولى، وهـي تجربـة لا ينكرها أو يتهمهـا، ولكنها جمّدتـه وهـو الثائـر المتمـرد والشـاعر الحـر الطليـق، أو كـما يقول:«أنـا لم أُدن علاقتـي السـابقة، ولم أقـل إنهـا علاقـة سـيئة أو فاسـدة، ولكننـي شـعرت بالاختنـاق، هـذه مسـألة خاصـة بتكوينـي الـذاتي، وطريقتـي في العمـل، وطبيعتـي، وارتطامهـا بمـا نبـت في طبيعـة الآخـر.

١- لتوضيـح اختـلاف الصـورة بـين «جيلـه» وبـين ابنتيـه «جيـل آخـر» كتـب الأبنـودي: «وقفـت متحـيرًا أتأمـل ابنتـي آيـة «٩ سـنوات» وكأننـي لم أرهـا مـن قبـل، قلـت لنفـسي: البنـت ليسـت غبيـة إلي الحـد الـذي تحصـل فيـه عـلي هـذه الدرجـات المتفوقـة «٩٨،٥ مـن مائـة» سـألت أمهـا: هـل تظنـين أن ابنتنـا غبيـة؟» قالـت: إنهـا طبيعيـة.. تبـكي، وتضحـك وتلعـب وتسـتمتع بحياتهـا، سـألتها : إذن لمـاذا حصلـت عـلى هـذه الدرجـة المرتفعـة جـدًا؟ انصرفـت معتقـدة أننـي أطلـق إحـدى نـكاتي التـي لم تعـد مجـبرة عـلي الضحـك بعدهـا.

في تاريـخ تعليـم عائلتـي لم يحـدث أن ارتكـب أحـد هـذا الخطـأ. كنـا ننجـح بدرجـات «عـلي الحركـرك»، وكنـا نسـخر مـن هـؤلاء الذيـن يفخـرون بتفوقهـم الـدراسي علينـا؛ فقـد كنـا نتفـوق عليهـم في العفرتـة والنشـاطات المدرسـية التـي لم يكـن لهـم نصيـب فيهـا أو منهـا، كنـا نضطـر إلي التصفيـق لهـم في الفصـل وكانـوا يضطـرون إلي التصفيـق لنـا مـع المدرسـة جمعـاء.

دائمـا كان الأوائـل صمّامـين محنطـين، محسـوبي الخطـوات، أمـا نحـن فقـد نبتنـا وترعرعنـا في حريـة الشـارع، وكنـا نشـكل نشـاز النظـام المـدرسي الصـارم، كيـف أتخيـل ابنتـي مـن الأوائـل ولم يسـبقها إلي هـذه الفعلـة عـم أو خـال؟ إن نظـام التعليـم التلقينـي المنعـزل عـن الحيـاة لا يخـرج إلا أنماطًـا بلاسـتيكية لمـن صدقـوه، فكيـف صدقتـه ابنتـي؟ هـذه المناهـج التـي لا تصـادَق ولا تصـادِق.. مـن هنـا جـاء الرعـب؛ رعـب أن تسـتمر البنـت عـلي هـذا المنـوال، يعنـي هـذا أنـك إذا خاطبتهـا وهـي في الجامعـة، ونبهتهـا إلي أحـوال مـصر مـما لم يـرد في كتـب الـوزارة؛ سـوف تـرد عليـك باندهـاش مـن كأنهـم يعيشـون وراء البحـار قائلـة:«لا يـا شـيخ؟!..». ـ الأبنـودي

(آخر الليل .. الكتابات النثرية ـ روز اليوسف ـ الطبعة الأولى ١٩٩٨.)

هنــاك أشــياء سريــة، بعضهــا يتعلــق بالتوافقــات النفســية والفكريــة والعاطفيــة.

استشــعرت رتابــة وتقليديــة الأمــر، بينـما مازلــت أحمــل الــروح الثائــرة المتوثبــة للاســتمرار، ولشــق قنــوات أخــرى، ولتجديــد الفكــر والحركــة وطريقــة الســلوك.

آلاف الأشــياء التــي لــو ذكرتهــا، فســوف أُلام -أيضًــا- لومًــا شــديدًا، وأُعاقَــب مــن هــؤلاء الذيــن يرغبــون في أن يعيشــوا لي حيــاتي.

والقضيــة هــي قضيــة اثنــين يحققــان شــيئًا يريــان أنــه شيء نبيــل أو غــير نبيــل؛ شيء في مصلحتهــما، ســواء مصلحتهــما نبيلــة أو غــير نبيلــة، وفي لحظة، يخــرج أحــد طــرفي العلاقــة خــارج دائــرة مصالــح الآخــر، أو خــارج دائــرة الهــدف الــذي تتعلــق بــه حيــاة الآخــر، والــذي إذا لم يتحقــق فإنــه يمــوت.

وقد وجدتني في لحظة أقول:

«ننام من غير ونس

ننام زي الجثث

كأننا بيتين

كأننا موتين

وانت اللي كنت الابتسام

وأنا اللي كنت العين

دلوقت بيضايقك دراعي

إن لمس

دراعك الممدود

ويخنقني أنا همس النفس

إيه اللي كان وانطفا؟

إيه اللي كان وانطلق؟

إيه اللي كان وانحبس؟

جسي شفايفي بصوابعك

وحسي طعم العبث!!

شبابيكنا من غير هوا

شبابيكنا من غير ضو

البحر مرصوف بلاط

والأوضة وسع النو

أنا وانت نجم في تراب

أنا وانت ضل الجو.

من حق الناس أن تنفصل بالحلال، فلماذا يسمح بهذا في الصداقات ولا يسمح به في الزواج؟ وفي اعتقادي أن الصداقة شيء نبيل جدًّا، لا تقل نبلًا عن الزواج إن لم تكن تفوقه؛ لأنه غير مشروط، وبغير مصالح، وبغير دوافع، وعندما تفتح دواوين شعري كلها تجدها تتكلم عن الأصحاب، والرفاق، فالأم والصداقة عندي من أعلى القيم الموجودة في شعري، فلماذا لا يحزن المجتمع إذا انفصل صديقان؟» (٥)

ولم يكن الأبنودي بعد نهاية تجربته الأولى يعترف بمسألة السن هذه، حسب تعبيره «صحيح أنني انفصلت في سن الخمسين، ولكن مشكلتي أن قضية السن غير مطروحة عندي بالمعنى التقليدي؛ فأنا

-بالفعل- لا أملك هذا الوقار المزيف لمن هم في الخمسين، ولا أملك رتابتهم، وقصائدي الآن أكثر شبابا من قصائدي الأولى» (٦).

لم يشعر الأبنودي -إذن- بمسألة السن عندما تزوج نهال، رغم أن المجتمع -كما يقول-: «بدأ يناقش التناقض بينى وبين زوجتي؛ أنا كبير في السن وهي صغيرة؛ أنا صعيدي خشن وهي جميلة؛ أنا فقير وهي من طبقة مستريحة»(٧).

ولكن الأبنودي رغم هذه الفروق فإنه قرر -برضى الطرف الآخر- أن يتزوج، وليس كما رأى من «تورطوا في اللغط في سيرتي وتصويري بمظهر الدنيء الذي طمع في الفتاه الصغيرة الجميلة دون مراعاة لكبره في السن»(٨). إنه يتذكر: «في البداية كانت -نهال- دائمًا تترك لي رسائل موقعة باسم بنتك نهال! ولذلك لم أتخيل أن أتزوجها، ولكن حدث ما لم أتوقعه، أمي فاطمة جنديل كانت في مرة بتزورني في القاهرة ورأت نهال وهي التي اختارتها لي، وصممت أن أتزوجها دون غيرها»(٩)، فوافق ذلك هوى لدى الأبنودي لأنه صادف «الإنسانة التي تستحق أن أبدأ معها من جديد»(١٠). و«لأن هذه العلاقة كفيلة بأن تجعلني أبدع وأمارس حيويتي(١١)»

وجاءت ليلة زواج الأبنودي من نهال في يناير ١٩٨٦ لتكون ليلة فاصلة في حياته، يؤرخ لها الشاعر بفترة قبل زواجه من نهال كمال، وبعد زواجه منها.. يتذكر: «عشت على قدر ما عشت في القاهرة لم أصادف ليلة كهذه، فحين عقدنا القران وتزوجت نهال كمال، انقلبت الطبيعة رأسًا على عقب في حالة من إعلان الغضب لم أر له مثيلًا

مـن قبـل؛ إذ هطلـت الأمطـار وبـرق الـبرق، وكانـت ليلـة لا يـرى فيهـا أحـدٌ أحـدًا في الشـارع، وجـاء أهـل العـروس مـن الإسـكندرية ومـن طنطـا تحـت هـذا الجـو العاصـف غارقـين في ميـاه المطـر، وأحذيتهـم غارقـة في الوحـل لتتـم الاحتفاليـة البسـيطة، وحـين أردنـا النـزول كان المطـر والرعـد لم تهمـد حالتهـما بعـد ـ وكانـت هنـاك حفـر بجـوار نـادي الصيـد انزلقـت إليهـا السـيارات، ونزلنـا بملابـس الزفـاف نشـمر البنطلونـات ونخـرج السـيارات، نظـرت إليهـا وقلـت: «شـفت الطبيعـة غضبانـة عـلى الجـوازة ازاي مـش الأصدقـاء بـس والرغـي الـلي حوالينـا وإنمـا الطبيعـة سـخطت سـخطًا مهـولًا»، ولقـد ظللنـا أكـثر مـن سـاعة ونصـف السـاعة نحـاول إنقاذ السـيارات، وكان أهـل نهـال متعجبـين؛ كيـف سـيصلون إلى بيوتهـم، ولكـن نهـال كانـت تبتسـم وتقـول: مـا دامـت الأمـور بـدأت بهـذه الطريقـة فسـوف نعيـش حيـاة رائعـة.. وقـد كان. صـدق مـا قالتـه نهـال». وقـد جعلـه الـزواج مـن نهـال يشـعر بالفـرق بـين الزيجتـين كـما عـبر عنهـا: «أسـتطيع أن أقـول إن زيجتـي الأولى كانـت زيجـة الحيـاة العمليـة، أمـا الأخـيرة فهـي إطـار للسـكينة والإيمـان بقيمـة الشـاعر-وليس الرجـل- وهـي الهـرب مـن التسـلط.. ونـوع مـن نفـض الأغـلال باعتبـار أن ذلـك واجـب شرعي.

وقـد أثبتـت نهـال أنهـا ليسـت مجـرد إنسـانة بسـيطة وجميلـة؛ وإنمـا هـي حيـاة كاملـة مكتملـة»(١٢)

أمـا مسـألة السـن فلـم تكـن الزوجـة تشـعر بهـا كـما يصـف الأبنـودي: «المشـكلة أن نهـال لا تـراني كبـيرًا في السـن، وإنمـا تعتقـد أنني أكـثر شـبابًا

منهـا، وأننـي عجـوز فقـط في عيـون الآخريـن»(١٣).

ولم يبـدأ الأبنـودي الشـعور بمسـألة السـن هـذه إلا بعـد أن أنجـب ابنتـه الأولى «آيـة» ثـم «نـور»

هـذه الليلـة عنـد الأبنـودي مرتبطـة بعاطفـة جديـدة لم يشـعر بهـا أبـدًا -وهـي عاطفـة الأبـوة- أو ليلـة ميـلاد أول طفلـة لـه «آيـة»، يتذكـر: «لم تكـن في خطتـي مسـألة الخلفـة، أو الإنجـاب مطروحًـا أو في مخططـي، لكـن حـين تزوجـت نهـال وأكرمنـا اللـه بحملهـا الأول، كنـت في حالـة مـن فقـدان التـوازن؛ إذ كان عمـري حـوالي خمسـين سـنة، والتجربـة بالنسـبة لي جديـدة جـدًّا وكل صلتـي بقضيـة الإنجـاب بلهـاء وغـير واقعيـة- ما كنـا نـراه في السـينما أن البطـل يـروح ويجـيء أمـام غرفـة الـولادة وهـو يدخـن سـيجارة مـن سـيجارة ثـم تخـرج الممرضـة لتقـول لـه: مـبروك جالـك ولـد أو جالـك بنـت زي القمـر.

لكـن حـين وقفـت مـع حـماتي يرحمهـا اللـه، وهـي سـيدة راقيـة ومؤمنـة وصبـورة وذات خـبرة بالنسـبة لي، وظللـت قلقًـا أمـام غرفـة الـولادة، وبعـد قليـل قالـت لي حـماتي: مـا سـلمتش عـلى بنتك ليـه يـا عبدالرحمـن؟. قلت لها فـين بنتـي؟. قالـت لي الـلي مـرت بهـا الممرضـة. قلـت لهـا وليـه ماقولتليـش؟ قالـت: اعتقـدت إنـك تعـرف، فالممرضـة لم تقـل الجملـة التقليديـة الـلي بنسـمعها في السـينما المصريـة -وكانـت ركبتـاي تصطـكان وجسـدي ينتفـض- ثـم أشـارت للممرضـة: هـاتي البنـت. فأحـضرت البنـت، فنظـرت إلى وجههـا وأنـا لم أعتـد هـذه اللحظـة، فوجـدت وجههـا أزرق وعينـين بهـما هالتـان مـن السـواد، ولم أتخيـل أننـي أدخـل بهـذه السـلالة إلى بيـت كـمال حافـظ..

قلت يا ربي أليس كافيًا أنني دخلت إلى هذه العائلة وغيّرت الصنف، كمان بنتي! وفى هذه التوهة نسيت أن أعطي الممرضة مالًا.. ووجدتني أحاول المغادرة خجلًا، وكان كل رعبي أن البنت خرجت ونهال لم تخرج، وعرفت أنها صعدت إلى غرفتها وذهبت إليها وملت عليها وقلت لها: البنت وِشّها مفعص قوي. سمعتني حماتي قالت: المواليد كلها في الأول كده.. البنت كويسة والبنات لها سبعة وجوه وبطل اللخبطة اللي انت فيها، البنت حلوة ونهال ربنا كرمها وآخر النهار هاتروح بيها».

حاول الأبنودي أن تكون ابنتاه صورة منه، مع وصلهما بجذوره، مبتدئًا بالاسم، ودار بينه وبين زوجته ما يشبه صراع الأجيال، ولكن من النوع اللطيف، يتذكر الأبنودي: «أحب الأسماء العربية مثل عائشة وفاطمة وليلى وزينب، لكن زوجتي -السيدة نهال كمال- ترى أن هذه الأسماء على الرغم من قداستها الدينية والتاريخية أصبحت أسماء قديمة قد تصبح مسار سخرية في مدارس اللغات العصرية، وتقول: تخيل طفلة سمراء خشنة الشعر قصيرته، واسمها عائشة أيضًا، لاشك أنها ستعامل كـ «كانجارو» في هذه المدارس التي هبطت علينا فجأة لتصبح منارات عالية للعلم المصنوع في قرانا الدامسة؛ مما جعل أهل المدن يذهبون إلى الريف أو الصحراء، ليس للسياحة ولا لاكتشاف مصر الداخلية؛ ولكن فقط لأن أصحاب المال اشتروا الأرض هناك وأقاموا عواصمهم التعليمية؛ لذا رفضت زوجتي أن تسمى طفلتي الأولى فاطمة، مثل اسم أمي وأختي، فاضطررت إلى تسميتها «آية»، ولم تسمح لي في المرة الثانية أن أطلق اسم والدة زوجتي المرحومة عائشة، فأسميتها «نور».

حين جاءت «نور» إلى الدنيا سمراء في لون الغروب الصعيدي العريق العتيق، صحت: «نور.. أمَا كان من الواجب أن أسميها ليلى؟ ونطلق عليها كما نطلق في الصعيد على اسم ليلى، اسم «لِيلة» بالعامية المصرية، ساعتها كان كل من الدال والمدلول، والصفة والموصوف سينفض عنه الغرابة؛ فابنتي «ليلة» فعلًا، لكنها من أجمل الليلات التي أحس تحت رموشها بصفاء الطبيعة ولين النسيم».

ولما لم يستطع الأبنودي -أمام رغبة زوجته- تسمية ابنتيه بأسماء عربية كما يريد، فإنه كان يعمل على تذكيرهما بجذورهما، كما جاء الإلحاح أيضًا من هناك، من أرض الجذور نفسها، يتذكر الأبنودي أنه عندما زار قريته بعد رحيل أمه التي كانت تتولى عنه القيام بواجباته، أن استقبله أهلها بفتور عبر عنه أحدهم: منصور الصعيدي، الذي كان يجلس على الدكة الهزيلة قائلًا: «لقد تزوجت هناك وأنجبت فلم نر لك زوجة ولا خلفة، هل تخاف أن نلتهمهن؟ هل قررت أن تربِّي بناتك على الطريقة «الأفرنجي»؟ أبنود ليست في حاجة إليك، أنت الذي في حاجة إليها»، ويعلق الأبنودي: «وبالرغم من وعورة أقواله ومرارتها؛ فإنه كان صادقًا كعواصف الصعيد السوداء».

وجاءت أول زيارة لأسرة الأبنودي في العيد، أو كما كتب: «منذ زمن بعيد فقدت طعم العيد ومذاق لحظاته القديمة، وربما قضيت معظم أيام الأعياد السابقة -ولسنوات- داخل جدران المنزل، كبرت ابنتي آية، وهي لا تعرف ماذا يعني العيد؛ فلا إخوة ولا أطفال جيران، ولا حياة اجتماعية متشابكة في هذه المدينة التي فرضت علينا العزلة،

أصبحت ككثيرات وكثيرين مثلها تُعيِّد أمام شاشة التليفزيون، تنظر بغرابة إلى هؤلاء الذين يصطحبون أطفالهم إلى الحدائق العامة أو الأهرامات.

هذا العام -وفاء لعهد سابق، ولتعنيف شديد من أهل قريتي- قررت أن أصطحب طفلتيّ إلى قريتهما التي لم ترياها، وهكذا عاشتا تجربة ركوب الطائرة؛ حيث كان الأصدقاء في استقبالنا، ذلك اللقاء الجماعي الأبنودي الحميم أعاد البكارة للمشاعر، والرهافة للإحساس، فكأني ولدت من جديد، اختطفت النساء زوجتي وطفلتي وتناقلنهن من دار إلى دار بعيدًا عني، بينما أحاطني الرجال بودهم الغامر الفياض، كان على رأسهم: منصور الصعيدي، ذلك الذي أبكاني عتابًا في المرة الماضية».

كان عيدًا حقيقيًّا، فتح شهية الأطفال للطعام، وفتح شهيتنا -زوجتي وأنا- للحياة» (١٤).

أو كما يقول: «أحاول ربطهما بالأصول، فيذهبان معي وأمهما -نهال كمال- إلى قريتي أبنود في الصعيد، وقد بدأتا تحسان بالفارق الرهيب بين حياتنا هنا وحياة الأطفال في سنهما في قريتي البعيدة»(١٥).

هذا الارتباط بجذوره في أبنود التي لم ينفصل عنها، هو الذي أعطى الأبنودي قيمته وقامته، كما أن اعتزازه بأمه وجدته، أعطاه تميزه واختلافه عن بقية شعراء جيله، فاسمه عبد الرحمن محمود أحمد عبد الوهاب حسن عطية حسن عبد الفتاح عمران، فقد تعقب اسمه الطويل بـ «الميراث»: «فمن قوانين الصعيد في الماضي -كما يذكر- أن تحفظ «سلسالك» العائلي؛ ذلك أن فكرة أوراق إثبات الشخصية لم

تكـن قـد عرفـت بعـد، وإنمـا اعتمـد العـرب عـلى حفـظ شـجرة العائلـة شـفهيا»(١٦).

وقــد أضــاف عبــد الرحمــن إلى «سلســاله» العائــلي، اســم «أبنــود» لتصبـح لقبـه وشـهرته؛ حبـا للبلـد الـذي أنجبـه وعلّمـه، رغـم المعانـاة التـي عاناهـا، والآلام التـي تلقاهـا، ولكـن الألم العظيـم هـو الـذي يصنـع الإنسـان العظيـم -كـما يقـول المثـل الفرنـسي- ولذلـك فالأبنـودي يعـترف: «أنـا في الحقيقـة مديـن لـكل سـنوات العـوز والشـقاء[1] الأولى»(١٧)، وفى القلـب مـن أبنـود كانـت الأم والجـدة اللتـان تلقَّـى عنهـما دروس الإبـداع الأولى التـي توارثنهـا عـبر الأجيـال؛ ولذلـك تجـد الأبنـودي يقـول بفخـر واعتـزاز: «كانـت تجربـة أبنـود أكـبر مدرسـة؛ أبنـود وأمـي وجـدتي فاطمـة قنديـل وسـت أبوهـا، دول مدرسـتي الأولى»(١٨). ولذلـك فهـو مـدرك «أنـا ابــن تجربــة خاصــة في زمانهــا وظرفهــا التاريخــي»(١٩). ولهــذا لا يشــبه الأبنـودي أحـدا، ولا نلمـس فيـه أي ملمـح مـن شـاعر بعينـه مـن الشـعراء الســابقين عليــه(٢٠)، حتــى أن فــؤاد حــداد الــذي يقــول في ثقــة: «أنــا والـد الشـعراء» هـو نفسـه الـذي يعـترف أن الأبنـودي هـو الوحيـد الـذي لم يخــرج مــن تحــت عباءتــه(٢١)، وبســبب هــذا التفــرد الــذي تميــز بــه الأبنـودي؛ فإنـه ظـل حتـى آخـر يـوم في حياتـه يعـترف بفضـل أبنـود وأمـه وجدتــه: «جــدتي لأمــي مازلــت أديــن لهــا بحساســيتي المفرطــة وبــأرق

١-كان العسـل الأسـود وصديقـه ورفيـق رحلتـه «المـش» -سـامحهما اللـه- طعامًـا يوميًـا مفروضًـا عـلى كل فقـراء الجنـوب، يسـكنان معًـا فى نفـس الـدور، يرتديـان لباسـيهما الفخّـاري كعضويـن أساسـيين مـن أعضـاء الأسرة. كل أسرة!!
-آخر الليل- السابق.

النصـوص الشـعرية والغنائيـة والأدعيـة والطقـوس الدينيـة[1]، هـي مزيـج مـن الفرعونيـة والقبطيـة والإسـلامية، التـي شـكّلت لـديّ الرؤيـة الشـعرية، كذلـك أديـن بالفضـل لأمـي، وصديقـي -وابـن عمـي- مصطفـى، والشـاعر أمـل دنقـل»(٢٢).

ويؤكـد أنـه «ليـس جديـدًا أن أقـول: إننـي مخلـص لتلـك المـرأة الأميـة «فاطنـة جنديـل»؛ أمـي التـي ألقمتنـي الكلـمات الأولى، وزرعـت فى ضميري الخير، ودلتنـي إلى كيفيـة تنـاول أمـور الحيـاة بشـاعرية، وتغليـف مـرارة الدنيـا بالخيـال الشـفيف حتـى تحتمـل قسـوة المـرور في السـنوات»(٢٣).

١- يصنـف الأبنـودي جدتـه لأمـه بأنهـا «كانـت سـاحرة محترفـة، كانـت إذا مرضـت تعتقـد أننـي محسـود؛ فتقبـض عـلى بعـض الملـح «الحـصى» وتمـرر يدهـا عـلى ظهـري مترنمـة:

يا عين .. يا عينيه

يا خاينة .. يا رديه

لا تخونيني فى المال

ولا تخونيني فى الذريه

اطلعي من عبد رحمان

واد فاطمة من عشيه.

كان هذا الطقس اسـمه «التخريج»؛ أي إخراج العين الحاسـدة من جسـد «المحسـود»

ـ السابق.

من تلحيني

ولم تكن تجربة الأبنودي الثلاثية بين أبنود وأمه وجدته، إلَّا الزاد الذي لم ينفد لإبداعه الشعري والغنائي الذي تميز وانفرد به عن أقرانه، حتى أنه كان يلحن أغانيه باعترافه: «أن الكثير من أغنياتي المشهورة هي من تلحيني[1]، أضعها جاهزة بين أيدي الملحنين، ولا أسمح بلحن لأغنياتي لا أوافق عليه»(٢٤).

وقد جعل الأبنودي للغناء لونًا غير مسبوق، وطعمًا متفردًا، فغنى له مشاهير المطربين والمطربات، كما أنه يرى حسبما صرح لي: «ربما كنت أول من كتب أغنيات للمسلسلات، وأول من ابتدع هذا اللون الفني في مصر؛ وبالتالي في العالم العربي، بحكم أقدمية التليفزيون المصري، فلا شك أن أول مسلسل تليفزيوني عرفه الجمهور كان «هارب من الأيام» لثروت أباظة، عام ٦٣ أو ٦٤ وكنت أنا الذي اقترحت عمل أغنيات للمقدمة والنهاية، وكان الأستاذ نور الدمرداش -المخرج- قد أرسل لي للاستعانة بأشعاري وبعض الأغنيات داخل المسلسل، واشتهرت الأغنية جدًّا، وكانت تغني في الشارع وتوالت الأعمال بعد ذلك».

١-كان الأبنودي يجلس تحت عامود الإنارة فى شارع الحلوى ليقرأ ويعزف الناي
«أبي والأبنودي» -مها جمال- مجلة «الشعر» العدد ١٥٨ ـ صيف ٢٠١٥.

ولذلك حقد الكثيرون على الأبنودي ووجهوا سهامهم إليه[1]، مع أنهم كان بإمكانهم أن ينفردوا ويتميزوا مثله، لولا انفصالهم عن جذورهم، وعدم استفادتهم من تجارب بيئاتهم الأولى، ولذلك فالأبنودي يرثي لحالهم، وينظر إليهم في دهشة قائلًا: «إنني أتعجب لهؤلاء القادمين من القرى ويحملون أشعارًا لا تمت إليهم في الحقيقة بصِلة، وكأنهم نزلوا مع الندى والمطر، ولم يهنأوا على حجور أمهات، ولم يجر خلفهم كلب في دروب القرية، ولم يسرقوا «كوز ذرة» من حقل وطوردوا من صاحبه، فإن هذه الأشياء تظل محفورة في ذاكرة الضمير بأقوى من أية صور أو أفكار أخرى، ومع ذلك لم تلفت نظرهم ولم يتذكروا أمهاتهم في أشعارهم التي هي أقرب لمن عاشوا طفولتهم في أوروبا» (٢٥).

أما الأبنودي فلم يشبه أو يقلد أحدًا، هو فقط يشبه نفسه، ولذلك فهو يعرف قدر نفسه: «أولًا لم يؤثر فيّ أحد أدبيًّا أو فكريًّا، عارف ليه؟ لأنني ابن مدرسة الفلاح المصري والصعيدي، المهمَل هناك؛

١ - ظهر إحساس الأبنودي بهذه الأحقاد حين كتب: «إذا ما انفكت القبضة فى المستقبل وسُمح بحرية الاستنساخ؛ فإنني واثق من عدم استنساخي.. أولا: لأنه لا مبرر لذلك؛ فإن الكثيرين يرون أني عشت أكثر من اللازم، وملأت الدنيا من حولي إزعاجًا وغلاسة، وسددت الطريق أمام الكثيرين من صغار الموهوبين، وثانيًا: لأني أسمر اللون واضح المصرية، وقد اكتشفت أن سكان مصر لا يحبون الصفات الأصيلة التى تميز المصريين: الوجه الغامق، والجسد النحيل، والشعر الأكرت.. تلك الصفات التى تجتذب فتيات أوروبا ويعتبرنها مثالًا للرجولة والفحولة، ينفر منها سكان مصر؛ لأنها دليل خروج من طمي مصر وانتماء صاحبها لطبقة الفلاحين، فمثلي لا يستطيع أن يفخر بأنه سليل الترك أو المماليك أو النورماند أو الفرس أو السلاجقة أو الرومان.. أو .. أو.. أنا مصري ابن مصري وأشابه العم سيتي الأول إلى حد بعيد، وتكفي نظرة لجسمانه البالي لاكتشاف التطابق التام» -آخر الليل- السابق.

لذلك لم يؤثر فيَّ أحد أدبيًّا ولا فنيًّا إلا الفلاح أبي وأمي والمربي الفاضل[1].. إنهم محبرتي اللي عمر مدادها ما خانني والذي لا ينتهي؛ إذ حينما أحتاج لأن أكون نفسي أمد قلمي في هذه المحبرة» (٢٦).

وكما يعترف بأنه ليس له أساتذة في الأدب والفكر، فإنه يعترف أيضًا بأنه ليست له مدرسة ولا تلاميذ: «لا أحب أن يكون لي مدرسة. وأكرر لك أنني لا أفضل أن يكون لي مدرسة؛ لأن لكل منا خصوصيته وموهبته التي منحها الله له» (٢٧)، ولذلك لا ينكر الأبنودي اتهامه بأنه ذاتيٌّ جدًّا: «حقًّا كشاعر وكإنسان أنا كذلك» (٢٨).

ولذلك حيث تصاعد الاتهام ضده: أنت متهم بأنك غضوب ولا تحب أحدًا إلا الأبنودي؟ أجاب: «قد يكون هذا انطباعًا تولّد في أذهان البعض لأني أحيانًا أحب أن أؤكد الصورة التي يرسمها لي أعدائي؛ فمثلًا هناك اعتقاد أنني لا أحب من الشعراء إلا أنا، وحين أرى البعض يطلق هذا فأنا أُسمي نفسي عبدالرحمن «الأحقودي»؛ تأكيدًا لكلامهم، وسرعان ما يلتقط تعبيري أصحاب المواهب المبتورة ويطلقونه عليّ على أساس أنهم قائلوه، هذا كل ما في الأمر» (٢٩).

١ - يتذكر الأبنودي مرحلة دخوله الكُتّاب، يقول: «حين تركت القرية إلى مدينة قنا ألحقني الوالد بمدرسة المحطة التي كانت ملاصقة لمحطة السكة الحديد، وكانت ذات مبنى خشبي تهتز وترتج وتكاد تتخلع عند وصول كل قطار ومغادرته -لكن ليس هذا موضوعنا- في الإجازة كان الوالد يصر على أن نحفظ القرآن الكريم في كتّاب الشيخ «فلان» وعلى الرغم من أنني أدين له بهذه اللياقة اللغوية والمعرفة بالقرآن الكريم بقدر ما كان الرجل قاسيًا جدًا في تعليمنا، ليس على طريقة الشيخ التي نراها فى الأفلام والمسلسلات؛ وإنما كان معه شيخان آخران، وكان «التسميع» يوم الخميس، فكان ينتظر هذا القرش واسمه «الخميس» وكان هناك مَثَل يقول «خد خمسة وإن شاالله ما قرا» كان يرصنا طابورًا ويمسك بيده «شاكوشًا» حديديًا وأحد الشيخين يمسك بزجاجة صبغة يود والآخر يحمل قطنًا في يده، ليس قطنًا طبيًا أو محلوجًا؛ وإنما قطن ببذرته.
فكان الشيخ الكبير يسأل «جبت الخميس»؟ ويا ويله من يطمع في القرش. ويبدأ التسميع وإذا «تأتأ» أحدنا وقال «آآ» يقول «آآه يا ابن الكلب» وإذا بالشاكوش يهوي على رؤوسنا فى حر «قنا» فإذا بالدماء تنفجر وتغرق الجلباب، وهذا يعني أن الولد الذى بعده لن ينطق أصلًا.. الشيخ الآخر يدلق صبغة اليود بالرأس والشيخ القصير يسد الجرح بالقطن غير المحلوج. وهكذا حفظنا جزءًا كبيرًا من القرآن تحت سطوة الإرهاب وقسوة الرجل الذى أفادني كثيرًا والذي أدين له بالكثير مما أنا فيه.
الإذاعة -حوار عفاف علي- ٢٠١٠/٥/٢٢.

ولكـن الأبنـودي يغضـب «مـن الأخطـاء المقصـودة التـي يرتكبهـا أحبـائي، أو محاولـة النيـل مـن سـمعتي أو كرامتـي» (٣٠).

ودفاعـه عـن كرامتـه قـد يصـل بـه إلى أقـصى مـدى، أو كـما يقـول: «أنـا مازلـت قـادرًا عـلى الشـجار باليـد، وأؤمـن بأخـذ الحقـوق باليـد» (٣١).

الاستعانة بالشيخ الشعراوي

وأتذكر أنني قد عانيت من غضبه كما نلت من عطفه وتقديره، ففي أول مقابلة صحفية لي معه كان الزكام هو حالي أثناء الحوار الذي اضطرتني الظروف إليه، ومع ذلك كان الرجل عطوفًا إلى درجة أنه كان يمدُّني بالمناديل الورقية كلما تصاعدت توابع الزكام، حتى أستطيع استكمال الحوار، دون أن ينفر أو يضجر بل واصل الحوار حتى نهايته متمنيًا لي السلامة، وذات مرة -بعد أن توطدت علاقتنا الصحفية والإنسانية- ظن أنني جئته مبكرًا عن موعدي، فغضب مني رغم أنني جئت في الموعد تمامًا، حينما طلب مني زيارته بعد صلاة الجمعة، فصليت الجمعة في مسجد مجاور لبيته وذهبت إليه بعدها دون أن أفطن إلى أن الأمور في بلادنا لا تسير بهذه الدقة، ومن ثم فقد كان الأبنودي كمن فوجئ بي بعد صلاة الجمعة مباشرة، وهو لا يصحو من نومه إلَّا في منتصف النهار[1]، فقام بواجب الضيافة، ولم يمكنني هذه المرة من إملاء حلقة جديدة من مذكراته التي كنا قد بدأناها قبل هذه المرة بمرات، وحدد لي موعدًا آخر.

١- «نومي مقلوب.. أستيقظ ليلًا وأنام نهارًا»
-الأبنودي- السابق.

لم أغضب من الأبنودي الإنسان، قدر غضبي من الأبنودي الأديب الفنان لأني عدت خالي الوفاض دون أن أسمع وأستمتع بحكاياته، أما هو فلم يحرمني من رأيه فيّ وتقديره لي حين أهداني كتابه «مختارات» من شعره، فكتب:

«إلى القلب النبيل

والقلم المؤتمن

صديقي الحميم:

إبراهيم عبدالعزيز

مودة دائمة

عبدالرحمن الأبنودي ١٩٩٨»

كما أهداني كتابه «آخر الليل.. الكتابات النثرية» قائلًا: «إلى صديقي العزيز إبراهيم أفندي عبدالعزيز، المحبوب الدءوب. الذي يقتحم من أجل جواهر الأدب الضائعة غياهب الغيوب. إلى الفارس الدارس والحارس، بعض نِتَف من حياتي وأقوالي ورؤاي.. أقدمها له متواضعًا، محبًّا، عبدالرحمن الأبنودي ١٩٩٨ـ القاهرة.

وحين داهمه المرض استعان بي لكتابة مقالاته بالصحف، فكان يمليني، ولم ينس تحيتي، فكتب بـ «جريدة الأسبوع»: «لا أكذبكم القول حين أقول إن البصر ينسحب من عيني كخيوط ضوء النهار لحظة الغروب، وأنني منذ فترة ألجأ إلى أحد الأصدقاء الخلصاء أملي عليه مقالاتي؛ الأستاذ إبراهيم عبدالعزيز، الصحفي بمجلة الإذاعة والتليفزيون، وصاحب الكتابات المعروفة عن طه حسين والحكيم

ويحيى حقي، وهو يلقي ما بيده ويأتي ليمارس هذا العمل الممل بحب، ولا أعرف كيف أرد له الجميل!! ـ ٢٢ مارس ١٩٩٩.

ولم يكن إملاؤه لمقالاته عملًا مملًا بل كان تشريفًا وثقة أعتز بها، وهو يجعلني كاتب يده، وقد فاجأني وهو لا يزال يتلقى علاجه بقصر العيني وهو يناولني هدية، قال لي إنها علبة حلوى للأولاد قادمة إليه من سوريا، وإذا بها عبارة عن المصحف الشريف الذي لازلت أعتز به، إلى جانب مصحف آخر أهدانيه الشيخ الشعراوى، الذي كان الأبنودي يحترم آراءه، فقد حدث أن اتصل بي الأبنودي ذات يوم ليذكرني بأنني أجريت حديثًا مع الشيخ الشعراوى على صفحات مجلة «الإذاعة والتليفزيون» تحدث فيه عن المؤذنين الذين يرفعون مكبرات الصوت ويزعجون الناس بلا مبرر، وطلب منِّي الأبنودي أن أمليه نص ما قاله الشعراوى ليستعين به في مقال يكتبه بجريدة «الأخبار»، وأمليته رأي الشيخ حول كثرة الميكروفونات المزعجة الزاعقة بالأذان في كل مكان، وهو ما أسماه الشعراوي مستنكرًا: «هذا جَعْر ديني.. اسمه جَعْر، والقائمون به والمهيِّئون له والمساعدون له آثمون.. آثمون.. آثمون؛ لأنه إذا كان في الصلاة نفسها قال الله عز وجل لرسوله الكريم: «لا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلًا»، فالجهر محرم، وقال «ودون الجهر» يعني أقل من الجهر، فما بالك بـ «الجَعْر»، فما بالك ليس بـ «الجَعْر» بل بـ«المَكْرَفَة»، (يُمكرفون الأصوات ويطلعونها مزعجة خصوصًا بالليل، وهناك المريض والذي يذاكر.

لقد اتخذوا من الميكروفونات ليس وسيلة أذان وإعلام بالصلاة؛ بل اتخذوها منابر إعلام بأصواتهم، وهذا ليس من الدين في شيء».

وسُرَّ الأبنودي برأي الشيخ وأعاد نشره في مقاله، في فترة انتشرت فيها ظاهرة الميكروفونات الزاعقة لأصوات منكرة مزعجة.

وحين كنت أزور الأبنودي حدثني عن طلبات أهل قريته التي لا تنتهي، ومنها دعوته للتبرع لبناء مسجد له مئذنته، والمئذنة معماريًّا -كما يقول- هي أصعب جزء في المسجد وأكثرها كُلفة، وفي كل الأحوال فهي معذبة تحتاج مالًا ربما يساوي ثمن الجامع نفسه- ويتساءل الأبنودي: «وإذا كانت هي الجزء المهمل الآن والذي لا وظيفة له، فهل نبنيها للزينة؟ ألا تشكل اليوم صرحًا مظهريًّا بحتًا؟. يتعجب الأبنودي ويتساءل: لماذا لا تصدر هذه الملاحظات عن علمائنا الكبار؟ ولماذا ينتظرون منا نحن دائمًا أن نجهر بها ليعطوا الفرصة للمنافقين والمتسترين بالدين لطعننا في ديننا ونوايانا؟ وهل يمكن لمثل هذه الأمور أن تناقش في هدوء يحكمه المنطق والعقل والدين والعدل دون اتهام أو غمز أو لمز». ومع ذلك فهو لا يريد أن يردَّ أهل قريته أو يعيدهم مكسوري الخاطر.

هذا هو الأبنودي، يغضب أحيانًا ولكنه يصفو ولا ينكر محبيه؛ ولذلك يجب ألَّا نتوقف أمام بعض تصرفات الأبنودي إلَّا في إطار ظروفها وساعتها؛ طبقًا لمزاجه الشخصي.

كما يجب ألَّا نتوقف أيضًا أمام آرائه السياسية، التي دفع ثمنها حينًا في السجن[1].

ومواقفه من حكام مصر الذين قال فيهم[2]: «مفيش رئيس من يوم ما طلعنا في الدنيا ومملديش حبال الود» (٣١)؛ فلهذا أيضًا ظروفه ومناسباته وحساباته التي تخضع لمزاج الأبنودي كأي إنسان، وإن كان هذا المزاج يهمنا في التعرف على نفسية الأبنودي وتفسير بعض من سلوكه، ولنقرأ ما تحدث به عن هذا المزاج[3]: «أصحو من نومي في الثانية عشرة ظهرًا، وزوجتي تقول لي إن أسوأ

١- ليلة القبض على ابن فاطمة قنديل، هي الصورة التى رسمها الشاعر حيث يقول: ليلة القبض عليّ أو على ابن فاطمة قنديل حيث كان الوالد حين غادرت الصعيد غاضبًا جدًا عليّ من مسألة تركي للعمل الميري والذهاب إلى القاهرة في مغامرة كان مؤمنًا بأنني سوف أعود منها خائبًا، ولكن خلال هذه الخمس سنوات كان اسمي قد بدأ في الظهور، وكان الناس في الصعيد يتكلمون عني باحترام؛ فاضطر في النهاية أن يعترف بوضعي الجديد، وقرر أن يزورني، وفي الليلة التي أتاني بها بالذبائح من حيوانات وطيور وجميع أنواع الرزق الذي كان متوافرًا في الصعيد، وحين أتيت به من المحطة وظللت أتسامر معه، وما إن انصرفنا للنوم، وفي حدود الساعة الثالثة صباحًا هجم على الشقة زوار الفجر للمرة الأولى في حياتي وكأنهم ينتظرون هذه اللحظة التي يصل فيها الشيخ الأبنودي ليعلن رضاه عني، وراح المخبرون والضباط يمزقون المراتب ويقلبون الفرش وبالذات التي ينام عليها هو ويجمعون الأوراق. وقف الرجل مبهوتًا ونظرت إليه مشفقًا وقلت له «ما تخافش يابا» هي البلد اليومين دول كده، فقال له الضابط: «ابنك عايز يقلب النظام يا سيدنا الشيخ». قلت له: «يا أبي لا تنزعج لست لصًا أو تاجر مخدرات، ولكنه خلاف بيني وبين الدولة»، ولم يستوعب؛ لأنه كان يؤمن أن طاعة الحاكم من طاعة الله، وتركته لأغيب ستة أشهر حار ودار خلالها، وكان من بين أصدقائه بعض المشايخ المتصوفة وحتى الوزراء أمثال الشيخ الباقوري والشرباصي وكثيرين لم يعطوه يومًا إجابة شافية، بل كانوا يطمئنونه فقط، وهم لا يعرفون أين أنا، وظللت طوال فترة الاعتقال أفكر في الرجل المريض وكيف أن هذه الواقعة من الممكن أن تقضي عليه، إلى أن وجدت طريقة أسرب بها أخبارًا تهدئ من روعه، وحين خرجت من الاعتقال ذهبت إليه في قنا وأخبرته أن السجن لم يكن مؤلمًا إلا في شيء واحد: هو أنني حرمت من الاستمتاع بأكل الزيارة التي جاء بها من عند فاطمة قنديل، وهذه هي ليلة القبض على ابن فاطمة»..
- الإذاعة ـ السابق.

٢- يقول الأبنودي: «وهنا أتذكر موقفًا عرفته فيما بعد، وكان من الرئيس جمال عبدالناصر بعد انتهاء جنازة الشهيد الفريق عبد المنعم رياض، وكان حزينًا جدًا على رحيله، وقد استمع إلى قصيدة في سيارته وهو عائد من الجنازة، كتبتها وأذاعتها «صوت العرب»، وعرفت فيما بعد من محمد عروق مدير صوت العرب في ذلك الوقت أن توجيهات الرئيس عبدالناصر بعد أن سمعني هي الاهتمام بي لأني في رأيه أقرب صوت له بعد النكسة.

أما -الرئيس السادات- فقد أرادني شاعرًا للسلطة، وحدثت بيننا معارك كثيرة كان شاهدًا عليها فوزي عبدالحافظ سكرتير الرئيس، وكان يتصل بي يوميًا ولكني كنت دائمًا أقول له أنا رجل رباني الشارع المصري، وولائي كله للشارع المصري وليس لأي أحد، واضطررت لحسم الأمر بالانضمام لحزب التجمع الذي كان في ذلك الوقت يعتبر رجسًا من عمل الشيطان على الرغم من التصريح به.

وأما -للأمانة- الرئيس السابق مبارك كلما كان يحدث لي شيء؛ مرض أو خلافه، كان يتصل للاطمئنان، وتحدث معي أكثر من مرة وأنا في المستشفى، وكان يفعل ذلك معي ومع غيري من رموز المصريين، والتقيت الرجل مرات في معرض الكتاب وفي اجتماعه مع المثقفين، ولكن لم تكن بينه وبيني علاقة خاصة، وإلا ماكنت كتبت أشعاري التي توضح موقفي بشجاعة، وربما كانت قصيدة «الاسم المشطوب» عن عبدالعاطي صائد الدبابات خير دليل على ذلك؛ فقد ظلم هذا البطل، وكتبت القصيدة التي هاجمت فيها الحكومة والرئاسة، وعرفت أنها أغضبت الرئيس لما قلت: «بلا رياسة بلا معارضة بلا بتاع»
ـ من حوار الأبنودي لأسامة شلش ـ أخبار اليوم - ٢٠١١/٥/١٤.

ويقول عن علاقته بالرئيس السيسي: «حين علم عبدالفتاح السيسي بوجودي في القاهرة طلب رؤيتي (أثناء حملته الانتخابية) وذهبت إليه في طريق عودتي لبيتي. قلت له: «مصر لن تسترد عافيتها إلا بالفقراء والشباب، وهما في أسوأ حال».

٣- يحدثنا الأبنودي عن بعض طقوسه: «أنا كائن صيفي، ولدت في الصيف وترعرعت فيه وسوف أموت صيفًا -حدث ومات في تباشير الصيف أبريل ٢٠١٥- لا يحبني الشتاء، ليس سوى لأني ولدت في الصعيد الأعلى، حيث ترتفع أرض مصر وتلامس الشمس هامة الإنسان، الجبلان يضغطان على ضلوع النيل كل من جهته يصبّان لهيبًا يحيل شراييننا إلى فتائل قناديل مشتعلة. لا أعمل إلا في الصيف؛ فيه أزدهر وتتفتح طاقتي، وإذا ما باغتني الشتاء توقفت عن التفكير وصار همّي التدثر. فحياتي ما هي إلا مجموعة أصياف، كل ما عداها عبث»، فيها أتحرر وأعطي وأسهر وألاقي الأحباب، ويجب أن يتم كل ذلك بسرعة قبل أن يفاجئني الشتاء الجديد لأنكمش عاجزا عن التعامل مع الكون في برد المدن، حتى يهل أمشير الجديد».
– السابق.

ما فيّ هو النصف ساعة الأولى عقب استيقاظي، وأتناول كوبًا من القهوة مع الساندوتش.

وأنا أحب الغناء، ويعجبني صوت نجاة الصغيرة، وأحيانًا أغني لنفسي.

ومثلما أحبُّ الغناء المصري أحبُّ الغناء الخليجي، فأعشق صوت أبو بكر سالم وغيره. كما أحب في الزهور الورد البلدي والياسمين، وأجمل خبر تلقيته هو حصولي على ميدالية ناجي العلي الذهبية.

ولا أخاف في حياتي سوى فقد الأصدقاء.

وأنا أدخن بشراهة كمية لا يمكن حصرها من الدخان، وأشتري ملابسي بالمصادفة؛ لأن علاقتي بالملابس ليست قوية، وأؤمن بأن الناس تنظر إلى وجهي أكثر مما تنظر إلى سيقاني الرائعة.

ولا أعتقد أن إنسانًا بكامل قواة العقليه قد يخرج من بيته قاصدًا محل أحذية ليشتري لنفسه حذاء مثلًا[1].

وليس لي حساب في البنك وأملك منزلًا واحدًا «قبل منزل الإسماعيلية للاستشفاء» ولديّ سيارة مرسيدس موديل ٧٦ (حتى وقت حديثه ١٩٩١). اشتريتها بعد ثلاثة أشهر من بيع سيارتي «اللادا» بعد أن كرهها أصدقائي وليس أنا.

وأود أن أقول في النهاية إنني لست أؤمن بالفصل في الذمة المالية بين الزوجين، فما يدخل البيت من مال هو للبيت» (٣٢).

ويبقى السؤال الأخير بعد رحيل الأبنودي: ما تأثيره؟

لم يترك لنا أن نجتهد ونستنتج؛ فقد كان واعيًا بقيمة نفسه المبدعة وتأثيرها، يحدثنا: «لقد استطعت -وأعوذ بالله من أذى قولة أنا- أن

١- يعترف الأبنودي أنه حديث عهد بالأحذية.

أحقـق للشـعر والشـاعر شـعبية حققهـا مـن قبـلي الشـاعر الشـعبي فقـط؛ شـاعر الملاحـم ومغنـي همـوم الفقـراء، وقـد كنـت تلميـذًا أصيـلًا ومخلصًـا لـه؛ فوهبنـي جمهـوره العظيـم الـذي لا أظـن أن شـاعرًا آخـر امتلكـه» (٣٣).

ويؤكـد: «يمكننـا القـول، وبـدون خجـل، إننـي شـاعر مؤثـر يحبـه النـاس مـن قمـة المثقفـين إلى قـاع الفقـراء، بـل ربمـا لا تفهـم الجماهـير كلمـة شـعر وشـاعر إلا مـن خـلال تجربتـي الشـعرية التـي لمسـت قلـوب الفقـراء وأضـاءت بعـض الوعـي في أفكارهـم» (٣٤).

وإذا كنـا قـد عرفنـا أن الأبنـودي كان يخـشى المـوت، مـن أجـل ابنتيـه؛ حتـى يصـل بهـما إلى بـر السـلامة والأمـان في الحيـاة؛ فـإن خوفـه مـن المـوت أيضًـا كان يمتـد إلى الشـعر، فقـد كان لديـه المزيـد منـه قبـل أن تنتهـي رحلـة العمر.

يتذكـر الشـاعر محمـد الحسـيني لقـاءه بالأبنـودي في لحظـة ضعـف يتعـرض لهـا كل منـا وهـو يقـترب مـن المـوت أو حـين يواجـه احتمالاتـه، فقـد جمعـت الحسـيني بالأبنـودي رحلـة إلى جامعـة جنـوب الـوادي لحضـور المؤتمـر الأول لشـعر العاميـة والـذي ترأسـه عبدالرحمـن.

«صعدنـا الطائـرة، حلقنـا فـوق مطـار الأقـصر، وعـادت العاصفـة الترابيـة التي أخـرت الطائـرة إلى الظهـور، وهنـا يحـدث أسـوأ هبـوط يقـوم بـه طيـار مـصري، وهـم المشـهود لهـم بالكفـاءة في الهبـوط، نظـرت إلى وجـه عبدالرحمـن الـذي كان يجلـس بجانبـي، كانـت ملامـح الرعـب قـد كسـت وجهـه، فانفجـرت في الضحـك، فقـال: يـا خـال الواحـد لسـه عنـده شـوية شـعر عايـز يكتبهـم» (٣٥).

ورغـم حـزني لأننـي لم أسـتطع أن أسـتكمل مـع الأبنـودي سـيرته الذاتيـة

والأدبيـة التـي بدأهـا واضحًـا صادقًـا صريحًـا؛ فإننـي قـدرت مأزقـه مـن تقديـري لمـأزق المشـاهير حـين يقتربـون مـن سـيرتهم الذاتيـة، وقد عـبّر هو بنفسـه عـن ذلـك حـين قـال: «لا يمكـن في مثـل بلادنـا أن يكتـب الإنسـان سـيرته الذاتيـة الحقيقيـة، ومـن يحـاول أن يقـترب مـن الصـدق في كتابـة سـيرته يخطـئ خطـأ شـديدًا؛ لأن الجماهـير تضـع الأديـب في صـورة معينـة، فـلا يمكـن أن يحطـم بنفسـه هـذا الإطـار ويتحـدث عـن تفاصيـل حياتـه السريـة والعلنيـة بصـدق ووضـوح وإلّا لفظتـه الجماهـير وعائلتـه، وانظـر مـاذا حـدث للدكتـور لويـس عـوض عندمـا حـاول الاقـتراب مـن نفسـه، مـاذا فعلـت بـه عائلتـه أولًا؟ وكيـف شـمت الآخـرون الذيـن ينظـرون للأمـر مـن منظـور أخلاقـي وليـس أدبيًـا أو نفسـيًّا؛ لذلـك يلجـأ الأديـب إلى شرائـح مـن حياتـه، ولذلـك جـاءت تجربتـي في «أيامنـا الحلـوة» التـي نـشرت في جريـدة «الأهـرام» والتـي طبعـت أكـثر مـن مـرة، الشـكل الأمثـل للبحـث عـن أشـكال جديـدة للسـيرة الذاتيـة دون أن تخلـق التخاصـم والرفـض عنـد جماهـير الأدب» (٣٦).

ومـع هـذه التحفظـات التـي بـرر بهـا الأبنـودي عـدم كتابتـه لسـيرته الذاتيـة كاملـة[1] فـإن الصفحـات التـي أمـلاني إياهـا ربمـا كانـت قبـل أن يفكـر في هـذه التحفظـات والمـبررات؛ ولذلـك جـاءت قسـوته عـلى

١- يزيدنـا الأبنـودي إيضاحـا لموقفـه مـن السـيرة الذاتيـة حـين كتـب: «لـكل منـا وجهـان؛ وجـه نرسـمه بدقـة اجتماعيـة مكتملـة الـشروط -عـلى قـدر الإمـكان- نظهـر بـه عـلى النـاس، ووجـه يختبـىء تحـت الوجـه، قـد يكـون مناقضـا تمامـا للوجـه الاجتماعـي.

وجهـان: أحدهـما يمـرق داخـل المجتمـع يحمـل شرعيـة الوجـه والمجتمـع معـا، وآخـر تكشـف عنـه لحظـات الـسر الشـديد والـضرورات الذاتيـة، تبعـد المسـافة بينهـما أو تقـترب حسـبًا لمتطلبـات الخـاص والعـام، كالمعاهـدات السياسـية بوجهيهـا الـسري والعلنـي.

محظوظـون ونـادرون وأبطـال حقيقيـون في مثـل مجتمعاتنـا، هـؤلاء الذيـن يملكـون وجهًـا واحـدًا ورأيًـا واحـدًا، ويطابقـون بـين الوعـي والصـدق والسـلوك، ينتهـي الأمـر بهـم في أغلـب الأحـوال إلى الجنـون أو الاكتئـاب أو التصـوف أو العزلـة التامـة عـن مجتمـع يضيـق بالصـدق؛ لأن الصـدق نشـاز الدنيـا.. الحقيقـة مفزعـة؛ لأن مفارقـات مجتمعنـا مفزعـة؛ ولأن السـير الآمـن في الطـرق المعبـدة يحتـاج إلى زئبقيـة ومرونـة، لا يُسـمح لـك بدونهـا إلا السـير عـلى الأرصفـة المتهالكـة الخطـيرة. هنـاك في المجتمعـات البعيـدة- تعنـي النعـم نعـم، وتعنـي الـلا .. لا، بينـما كثـيرًا مـا تتحـول الـلا.. في مجتمعاتنـا إلى نعـم، والنعـم إلى الـ لا، وإلا صرت معقـدًا في عيـون أهلـك ومجتمعـك، نكديًـا وثقيـل الظـل يرفضـك المجمـوع الـذي اتفـق عـلى التوافـق دون اتفـاق؛ لذلـك تتقـدم المجتمعـات مـن ذوات الوجـه الواحـد، وتتدهـور يوميًـا المجتمعـات ذات الوجهـين!».. - السـابق.

والـده وأخيـه الأكـبر جـلال، معـبرة بصـدق عـن واقـع مـا حـدث في حياتـه؛ فقـد كان الأب الـذي انشـغل بذاتـه عـن أسرتـه سـببًا في أن الأم هـي التـي قامـت بمسـئوليات الأب، فكافحـت كفاحًـا مريـرًا حتـى يعيـش أبناؤهـا، إلى درجـة أنهـا كانـت تنخـل الـتراب بعـد انتهـاء عمليـة فصـل الغـلال عـن القـش لـكي تفـوز بكيلـة أو كيلتـين لتقيـم أَوَدَ أسرتهـا التـي قامـت فيهـا بـدور الأب والأم في وقـت واحـد، ومـع ذلـك فـإن الأبنـودي لا ينكـر بعـض فضـل صفـات الأب عليـه، يتذكـر: «لم أكتـب يومًـا مـن أجـل المـال مهـما كانـت الضائقـة التـي أمـر بهـا، وهـو شيء اكتسـبته مـن والـدي؛ فقـد كان مأذونًـا شرعيًّـا وفـرض عـلى نفسـه أن يكتـب عقـود زواج فقـط ولا يكتـب عقـود طـلاق أبـدًا، فكنـا بسـبب هـذا أحيانًـا نتأخـر عـن دفـع مصاريـف المدرسـة لفـترة طويلـة[1]، الأمـر نفسـه: هنـا لا أكتـب عـلى الإطـلاق أغنيـة مـن أجـل المـال، ولكنهـا مشـاعري تتسرب مـن دُرجـي إلى أن يـدق بابهـا صـوت أحبـه أو ملحـن أميـل إلى ألحانـه» (٣٧).

ورغـم أن مـا أمـلاه عـليٌّ الأبنـودي مـن مذكراتـه لم يغـادر مرحلـة الطفولـة والصبـا؛ فـإن هـذه الفـترة -فـترة الطفولـة بالـذات في أبنـود- تعتـبر الفـترة الأهـم في حياتـه، والتـي كانـت منبعًـا لإبداعـه وعنوانًـا عـلى مسـيرته الفنيـة والإنسـانية حتـى رحيلـه، أو كـما يقـول: «مـازال

١- عن والده يتذكر: «حين كنت أطلب منه قرشًا لشراء أداة مدرسية، كان الشيخ الأبنودي يبقي يده في جيب جبته طويلًا ويحاورني أثناء ذلك كي يأخذ وقته فلا يخطئ ويخرج من «سيالته» (حتة بخمسة) كانت القروش وقتها هامة -القرش الأحمر والقرش الأبيض المثقوب من الوسط- وكانت تفقد كتاباتها وأرقامها لكثرة تداولها بين أيدي البشر، لكني -على صغري- أطلقت نكتتي المشهورة التى تقول إن كل تلك القروش فقدت ملامحها بسبب أصابع أبي التي كانت تدعكها في جيبه السفلي حتى لا يخطئ فنطمع. أما أنا فديمقراطي، أتبع أساليب التربية الحديثة في تنشئة بناتي، وأترك الطفل يجرب ويكتشف بنفسه الصح والخطأ، لكنه -في الحقيقة- مبدأ مكلف جدًا ومرهق جدًا لنا، فما بالك بمن يلينا في السلم الاجتماعي؟»
- السابق.

عـالم الطفولـة هـو العـالم الغنـي السـخي الـذي ألجـأ إليـه دائمًـا حـين تضيـق بي التجـارب، ثـم إنـه مازالـت حتـى الآن معظـم مفـردات الطفولـة في أبنـود أكتـب بهـا، وهـي التـي أورثتنـي إياهـا وملأت بهـا حجـري وجيبـي، فأبنـود هـي تجربتـي الثريـة، هنـاك عرفـت معانـاة الفلاحـين.. وتظـل أبنـود هـي عمـود الخيمـة في تجربتـي الشـعرية والإنسـانية»(٣٨).

إبراهيم عبد العزيز

مذكِّرات عبد الرحمن الأبنودي

الحاج قنديل

كـم كان عمـري حـين كان يقـذف بي في الهـواء، ويتلقفنـي في رميـات عاليـة بطيئـة تنتهـي برميـات قصـيرة سريعـة، وكان يضحـك كطفـل.

أذكـر وجهـه وكرمشـة عينيـه مـن الجانبـين، ولم يكـن أسـمر ولا أبيـض، قـوي البـدن، ضخمـه، قصـيراً في مجملـه.

هـل كنـت في الرابعـة، وهـل فعـل معـي ذلـك قبـل ذلـك، وهـل عرفـت ساعتها أنـه الحـاج قنديـل؛ جـدي لأمـي، أم عرفتـه بعـد ذلـك؟

وهـل مـا عرفتـه مـن صفاتـه تـسرب إلى أذني مـن خـلال الحديـث عنـه أم أننـي رأيـت ذلـك وعاينتـه بنفـسي؟

فأنـا أجـدني الآن أعـرف الكثـير عـن الرجـل، وحـين أبحـث عـن الأصـول البصريـة فـلا أذكـر إلا صـورة الشـيخ الـذي يقـذف بالطفـل في الهـواء، وصورتـه وهـو يشـد بكَـرَة البـئر التـي حفرهـا في «الكـرم» الـذي زرع نخلاتـه بنفسـه، والـذي يحتـلُّ نصـف مسـاحة البيـت؛ فـ «الكـرم» قيراطان والبيـت قيراطـان. أمـا البيـت، فحتـى الآن لا أسـتطيع تصـور بيـت آخـر حـين أحـاول رسـم (جغرافيـة البيـت الصعيـدي أو تصـوره) فلقـد بنـاه الحـاج قنديـل بنفسـه، مـكان البيـت القديـم الـذي ولـد فيـه -غالبًـا-

وهـو بيـت عظيـم الشـأن، يعكـس حسًّـا فنيًّـا عاليًّـا، ووعيـا بالعـمارة والـذوق والجـمال؛ إذ إن بابـه يظـل أضخـم بـاب رأيتـه عـلى الإطـلاق بعـد ذلـك، إذا اسـتبعدنا الأبـواب الضخمـة جـدًّا التـي تسـمح بدخـول العربـات الكبـيرة التـي رأيتهـا في فيـلات وأسـوار دول الخليـج، وتلـك الأبـواب التـي وقفـت أمامهـا كثـيرًا -بعـد ذلـك- في مدينـة القـيروان بتونـس، وبيـوت وأسـوار مـزارع الجنـوب التونـسي، والفـارق أن الأبـواب التونسـية لا تفتـح بأكملهـا مـع كل داخـل وخـارج؛ لأن بهـا بابًـا صغـيرًا للخـروج والدخـول يسـمى (بـاب الخوخـة)، وهـي أبـواب قديمـة جـدًّا، وجـزء لا يتجـزأ مـن أبـواب شـمال أفريقيـا، ووردت كثـيرًا بالاسـم المعـاصر نفسـه في «سـيرة بنـي هـلال» عنـد العديـد مـن الشـعراء.

أمـا بـاب جـدي قنديـل فهـو يعلـو درجًـا صغـيرًا مكونًـا مـن سـلمتين بُنِيَتَـا بالطـوب الأحمـر والطـين المختلـط بالتـبن، والعجيـب أنـه طـوال طفولتـي وصبـاي لم تحتـج السُّـلَّمتان للإصـلاح ولـو مـرة واحـدة، أمـا البـاب الـذي يبلـغ طولـه أكـثر مـن ثلاثـة أمتـار وعرضـه أكـثر مـن متريـن ونصـف المـتر، فقـد كان يسـتقر عـلى «عتـب» خشـبي، قالـت جـدتي «سـت أبوهـا» حـين سـألت، إنـه مـن شـجر (السـنط)، وظلـت هـذه «العتبـة» تـزداد لمعانـا وأصالـة، وتنعـم ويتخلـق منهـا بريـق نعومـة الخشـب كلـما مـرت بهـا السـنوات، أمـا البـاب نفسـه فيقـف عـلى وتـد يسـتقر في فتحـة عـلى شـمال العتبـة، ويدخـل للعتـب الفوقـي مـن خـلال وتـد آخـر.

موسيقى الباب

وظللت منذ كنت طفلًا أحب تلك الموسيقى التي تصدر من حركة الباب فتحًا وغلقًا، وذلك الصرير المحبَّب الذي يعكس عراقة خاصة لا تتمتع بها البيوت الأخرى في قريتنا؛ إذ إن لكل باب بيت في القرية صوتًا، ويظل صوت باب الحاج قنديل مميزًا، ومُعْلَنًا، ويشي بوضوح عن الوعي الحقيقي للحاج قنديل بأنواع الأخشاب التي عرفت سبيلها إلى قريتنا، ويؤكد ذلك أخشاب بئر كرم النخل حين نصل للكلام عنها. وللبيت سور عال يتجاوز الخمسة أمتار بلا أعمدة تشده، وظل هذا السور يزداد رسوخًا وأعمارنا تتقدم، حتى هُدم بالمعاول منذ سنوات قليلة، ولقد شقي الهدامون في إنزاله من عليائه، مع أنه أيضًا كان مبنيا بطوب التراب والتبن.

وباب البيت كان مكونًا من ستة ألواح طولية تُمسك بها بصلابة وأناقة ثلاث عارضات مَبْرِيَّة جيِّدًا، سميكة لكنها لا تشكل عبئًا على وزنه، وكان يستطيع أي طفل ببساطة أن يفتحه أو يغلقه بأسهل مما تحتاج أبوابنا الحديثة من جهد، وكان الباب لعبتي المحببة في الطفولة، وربما كان صوته -الذي عاشرته طويلًا- أول موسيقى حقيقية

أستمع إليها، وأول لحن أفهمه جيِّدًا بكامل تعرُّجاته ودرجاته الخافتة والعالية، أحفظه وأردده معه، وأرقبه جيِّدًا لاكتشاف الاختلاف بين ما أقول وما يقول الباب.

وكان للباب مِغْلَاقَان؛ غلق من الداخل وآخر من الخارج.. وأنا أستعمل هنا نفس التسميات القديمة، فـ «القفل» كلمة لم نتعرف عليها سوى من الحدّادين؛ أما الغلق فهو قفل النجارين، ولقد رأينا صورًا كثيرة لمثل هذا الغلق بمفتاحه الخشبي ذي الأسنان الستة؛ الأسنان الحديدية الستة، الذي يدخل بطريقة خاصة كطريقة غرف الطعام بالمغرفة من (صحفة)، ثم البحث عن الثقوب حتى تستقر أسنان المفتاح الخشبي في ثقوب الغلق العلوية، ثم يجر المفتاح ويد الغلق معًا للخارج فينفتح الباب، وما كان لمفتاح آخر أن يفتح باب جدي قنديل؛ لذا فقد كان هذا المفتاح معلّقًا دائمًا في مكان بارز في (صوبات) البيت كي لا يضيع بين أشيائه، أو بين ما يتناثر من قش وأحطاب تعودنا دائمًا أن تبرك بها الجمال أمام الباب من الخارج؛ لتدخل من هذا الباب الكبير وقودًا للأفراد؛ انتظارًا لبرد الشتاء.

وكان يعلو الباب واجهة خشبية محفور عليها بخط متواضع (ادخلوها بسلام آمنين) محفورة بين زهرتين أقرب للسنابل منها إلى الزهور.

وحين ينفتح الباب وتصعد السلمتين، يواجهك باب في المقابل بلا باب، وإنما هو إطار مستطيل خشبي يؤدي إلى الداخل، أما هذه المساحة التي بين البابين فكان اسمها «الديوان»، وفي الديوان ثلاث

كنبات بلون الخشب الأصلي القديم لم يلمسها دهان، وإنما اتخذت لونًا بفعل الزمن وأصابع البشر الذين جلسوا عليها، وشدت بالأكلمة اليدوية المنسوجة من وبر الجمل، من الأبيض والبني، نطلق عليها (البردة الرجالي)، ولم يكن للظهر مساند أو حشيات، وكان جدي قنديل يستقبل ضيوفه ويحل مشاكلهم في هذا الديوان الذي يكون صاخبًا حين يكون جدّي بالقرية، وحين يغادرها يظل الديوان لفترات طويلة صامتًا، نقاوم صمته بلعبنا نحن الأطفال، ونقاوم ظلامه بفتح الباب الكبير.

وحين تعبر من ذلك الباب الطولي الذي بلا باب؛ فإنك تنزل السلمتين مرة أخرى إلى الديوان، وكأن الديوان رُدم مترًا بالتراب حتى يصبح في ذلك المستوى العالي عن الدروب وعن بقية البيت، وحين تنزل السلمتين فأنت في الصوبات، والصوبات هو ممراح الصيف، فمساحة الظل تكون قد اتسعت، يفصله عن حر الشارع ديوان البيت، وعن حر البيت بوابة رائعة بلا أبواب أيضًا تتلقف الهواء بطريقة خاصة لترمي به في الصوبات الترابي الذي كان يُرش بالماء طوال أيام الصيف، والذي كانت أرضيته الترابية متماسكة وثابتة وكأنها أسمنتية.

غباء

أما الأسقف في الديوان أو الصوبات، فقد كانت من أنصاف جذوع النخل المتكئة على جانب واحد، وجريدة النخل المضفّر بالحبال والطين.

ولم يحدث منذ بُنِي البيت أن احتاج السقف لأي نوع من أنواع الترميم أو الإصلاح، فكأنّه استقر ليبقى، ولم يكن يضايقنا فيه إلَّا الدبابير السوداء الضخمة، والزنانين الصفراء التي تجد في السقف وارتفاعه أماكن ملائمة لبناء أعشاشها الطينية بعيدًا عن أيدي الصغار العابثين، أما الدبابير السوداء فلقد اكتشفنا غباءها منذ وقت مبكّر جدًّا، وكان يحلو لنا اصطيادها بأعواد الجريد التي نخلصها من خوصها الأخضر، أما الزنان فكنا نتحاشاه لقرصته المؤلمة.

وفي أوائل الصيف كانت تأتي العصافير أيضًا لبناء أعشاشها في أسقف بيت الحاج قنديل، وتعلمت منذ وقت مبكر التسلق على الجدران والتعامل معها منذ تبدأ في بناء العش إلى أن تضع بيضها إلى أن يفقس البيض وتكبر رويدًا رويدًا، ومنذ وقت مبكر أيضًا

تفهمت حياة هذه المخلوقات وراقبتها وهي تخرج من بيضها عارية حمراء كبيرة البطن بما لا يتناسب مع جسمها، صفراء الفم الذي لم يتحول إلى منقار بعد، إلى أن ينبت الزغب ثم يبدأ الريش في احتلال أماكنه، وكنت أعرف متى سوف تبدأ الطيور محاولة تطيير أبنائها الجدد، بل وأجري خلفها في البيت، وحفظت حياتها جيِّدًا ربما وأنا بعدُ أتعلم الكلام.

أصبح اسمي «رمان»

في الصوبات وفي الديوان كانت هناك «طاقات أو الطيقان» في أصل البناء، وجدت خصيصًا لوضع المسارج والفتائل للإضاءة، وكان البيت يضاء ليلًا بـ«سراج الزيت» وهو «صحفة» فخارية صغيرة «زبدية» تملأ زيتًا ويضفر فتيل من أقمشة بقايا الملابس تغمس كلها في الزيت ثم يوضع الفتيل في الصحفة، ويطل برأسه على وضع الثعبان، وكان لدينا زناد حديدي وزلطة لإخراج الشرر من ارتطام أحدهما بالآخر ليشتعل السراج.

وكان بالصوبات زير للماء عليه غطاء خشبي دائري، وأربع جرار استقرت في مقعدها الطيني تحت الجدار الذي يفصل الصوبات والديوان لزمان طويل، وكان بالصوبات سريران جريديان، يُستعملان ككنبتين، وكان هناك «المعلاق»؛ وهو جسد سباطة نخل قطعت من أصلها ونزعت عنها شماريخها، واحتفظت بانحناءاتها وربطت بحبلين من الطرفين وعلقت في الجدارين بمسمارين، وكان القادم يضع عليهما عباءته أو شاله، وكانت النساء يستعملن هذا المعلاق في وضع ملاءاتهن وطُرحهن اللاتي يسرعن بلبسها حين سماع أي طرقة على الباب الخشبي الكبير.

حين تجتاز بوابة الصوبات إلى داخل البيت يكون في مواجهتك سلم طيني يشبه إلى حد كبير السلالم الضيقة في معبد «دندرة» و«إدفو» يؤدي إلى الغرفة العليا، ومساحة السطح ذات السور التي تمتد أمامها والتي تطل من يمينها على بيت (أبو العلا)، ومن واجهتها على بيت (محسب)، ومن يسارها على بيت (محمد سعيد العبد)، وقد كان عبدًا فعلًا أسود البشرة بما يشي أنه إفريقي، وقد كان من بقايا العبيد الحقيقيين الذين يخدمون عند الولاة المماليك والأتراك كما سيرد بعد ذلك.

أما إلى اليمين بجوار السلم الطيني فقد كان يقع الحاصل الغربي والحاصل الشرقي؛ أما الحاصل الغربي فقد كان (الغرفة الخاصة جدًّا) لجدتي ست أبوها، وكان الحاصل الشرقي مخزنًا لغلالنا وأشيائنا.

ومن الحائط الشرقي للحاصل الشرقي يمتد السور الذي يفصل بين البيت وكرم النخل حتى يصل إلى جنينة (علي غزالي)، وقد كانت حديقة كبيرة مزروعة بالرمّان فقط، ويفصلها عنا جزء من السور العالي الذي يصل إلى خمسة أمتار.

ومنذ وقت مبكر في الطفولة أغرتني ثمار الرمان ذات الألوان العنابية و«النبيتي» والوردية، إلى البحث عن نخلة مجاورة للنزول إلى جنينة (علي غزالي)، وربطت حبلًا في وسطي، وأخرجت «عب» جلبابي للأمام، وملأت «عبي» بثمار الرمان، ولم أستطع صعود النخلة مرة أخرى إلى أن ضبطني ابنه (منسي) وقد كان ضخم الجثة ولا يستطيع الحركة، إلَّا أنه استطاع أن يمسك بي؛ فقد كنت أثقل منه، وكانت فضيحة وأصبح

اسمي منذ ذلك الوقت «رمّان»؛ ففي الطفولة لم تكن أمي وجدتي تناديان عليّ باسم عبدالرحمن، وإنما باسم «رُمّان»، وهما متقاربان كما ترى وبينهما لمسة شعر لغزية كانت تنفث من لغة هذا البيت وتغلف الحياة جميعها بتلك اللمسة الشعرية الرائعة.

نخلة «الكلب»

بجوار جنينة (علي غزال) كانت تقع «الشونة»، وكانت تنقسم لقسمين: قسم لـ «التبن» وقسم للوقود المكون من روث البهائم..إلخ، والذي لم يكن يستغني عنه فرن البيت، وهناك سور آخر كان يفصل هذه المنطقة عن البيت ومنطقة الشونة كلها، كان يطلق عليها اسم «بحري»؛ فقد كانت في الجانب البحري من البيت، وكانت واسعة تستوعب لعب الأطفال، وإقامة «الكوانين» الضخمة في العزائم الكبيرة والمناسبات التي لا يستوعب جمهورها الديوان والصوبات، ومن حد بحري حتى حد الصوبات كانت «الفرن» القائمة فيما يشبه الغرفة؛ ولا غرفة، وكانت تتناثر صوامع الغلال الطينية على شكل معماريٌّ ضخم، مُذَكَّرًا يُسَمَّى «السنط»، ومؤنثًّا يُسَمَّى «صومعة» أو «جوجع»؛ أي قوقعة. بعضها مخازن للغلال، وما اقترب من الفرن كان لحفظ الأشياء وينوب عن الدواليب في عصرنا هذا، وكانت تنزل من السقف «العُلِّيقَات»، وهي أشبه بالمكرمية، ومكونة من الحبال وشرائط الصفيح، وكان يوضع بها الطعام معلّقًا في الهواء بعيدًا عن الهوام والقطط والكلاب، وليظل الهواء البارد يضربه حتى لا يفسد.

هـذا هـو بيـت الحـاج قنديـل الـذي خرجـت فيـه، وتفتّحـت عينـاي على الدنيـا أول مـا تفتحـت عـلى أشـيائه. أمـا النصـف الثـاني منـه فقـد كان هـو النصـف المحبـب لي، وربمـا لـكل إخـواني؛ فقـد كان كرمًـا مـن النخـل اختـار «فصـاة»[1] مـن نخـل آخـر، جـدي الحـاج قنديـل وزرعـه -كـما قالـت- سـت أبوهـا (جـدتي) وقـد حـضرت ذلـك بعـد أن اختـار المسـاحات وحفـر الحفـر ووضـع مـع كل «فصايـة» بعضًـا مـن فصـوص الملـح وكبشـة حنّـاء وبعضًـا مـن «خبـط السـنط»[2] وقـرأ الفواتـح وبعـض الآيـات.

وفى الواقـع فإننـي ظللـت لوقـت طويـل أحسـد جـدي الحـاج قنديـل عـلى اختياراتـه لتلـك الأنـواع مـن البلـح، وإن كنـت عرفـت بعـد ذلـك أن لـكل نخلـة في قريتنـا اسـمًا، وأنـك بعـد فـترة مـن عمـرك في هـذه القريـة تكـون قـد تعرفـت إلى كل نخيـل القريـة، وحفظـت أسـماء كل نخلـة وعرفـت طعمهـا؛ وبالتـالي فهـو لم يفعـل أكـثر مـن أن زرع مـا رأى أنـه أفضـل النخـل في أبنـود، أو غيرهـا.

ويجـب أن أتوقـف عنـد هـذا النخـل، ولأبـدأ مـن الجانـب القبـلي، فـكان أولهـا نخلـة «لازنـان»، وبلـح هـذه النخلـة كان يفـرز عسـلها لدرجـة أنـه يسـيل عـلى الأرض، وكانـت الدبابـير والزنانـير تتحلّـق بهـذه النخلـة في كثافـة منـذ أن يبـدأ لـون بلحهـا في الاصفـرار، يشـدها العسـل، وكانـت مهمتنـا قاسـية جـدًّا في الحصـول عـلى بعـض ثمارهـا، وكان لابـد أن نبتعـد عنهـا، وإذا اشـتقنا لبلحهـا فعـلى الكبـار أن يتصرفـوا في هـذه «الزنانـين»، وكانـت تقطـع دفعـة واحـدة بواسـطة محمـد سـعيد العبـد، وينـشر بلحهـا عـلى سـطوح البيـت ليجـف ويصبـح زادًا شـتائيًا.

١- نواة البلح.

٢- أوراق شجر السنط الدقيقة، وهي أقرب للحناء أيضًا.

ولـو توقفـت أمـام كل نخلـة بمجمـل صفاتهـا وعلاقتـي بهـا لاحتجـت إلى كتـاب كامـل، ولكـن كانـت هنـاك نخلـة «الكلـب» وكانـت إلى جـوار السـور العـالي، ومـع أن هنـاك نخـلات أخـرى كانـت إلى جـوار السـور إلاّ أن كلاب المنطقـة اختـارت هـذه النخلـة بالـذات لتقتـات عليهـا، وكانـت السـباطات التـي إلى جـوار السـور محرّمـة علينـا لأن الـكلاب كانـت تـأكل منهـا وتلعقهـا، وكنـا نقطعهـا حـين تطيـب ونلقـي لهـا ببقيـة مـا تركتـه. أمـا نخلـة «مغربيـة» فقـد كانـت خضراويـة، بمعنـى أنهـا ترطـب وتجـف وهـي خـضراء اللـون، ولم أصـادف في حيـاتي نخلـة تشـبهها أو بلحـة تملـك الصفـات نفسـها، فـكل البلـح يتغـير لونـه قبـل النضـج للأصفـر أو للأحمـر مـا عـدا هـذه الخضراويـة، أمـا «السـكّوتي» فقـد كانـت -وابنتهـا- تتحـول إلى سـكر خالـص جـاف، وكان الكبـار يحسـدوننا عليهـا لأنهم لا يسـتطيعون التعامـل معهـا بأسـنانهم، وفيـما بعـد عرفـت أن «السـكّوتي» فصيلـة مـن النخيـل تحمـل الاسـم نفسـه ولهـا الصفـات نفسـها، أمـا نخلـة «القريـة» فقـد كانـت تمطـر بلحهـا عـلى القريـة، فاكتسـبت الاسـم مـن هـذه اللعبـة البسـيطة، أمـا «العامـود» فقـد كانـت أعـلى النخـل جميعًـا، ومـا زلـت أتحـسر عـلى قطعـه حـين اسـتطال بشـكل مبالـغ فيـه وأصبـح يشـكل خطـرًا عـلى البيـت.

وهكـذا اكتسـبت كل نخلـة اسـمها مـن صفاتهـا أو موقعهـا أو حادثـة جـرت تحتهـا، وكانـت اثنتـين وثلاثـين نخلـة، تعلمـت صعودهـا قبـل أن أبلـغ الخامسـة، ولسـت في هـذا فريـدًا أومُعجـزًا، ولـولا نهـرات جـدتي سـت أبوهـا ورعـب أمـي لتعلمـت صعودهـا قبـل ذلـك بكثـير.

وتجارب طلوع كل نخلة على حدة للمرة الأولى هي تجارب نفسية كاملة تستحق الرصد والتأمل، وبلوغ منتهاها يشبه إلى حد كبير بلوغ مرحلة سنية جديدة، ويتشابه أيضًا مع عبورك النهر للمرة الأولى، ويعطيك طاقة حقيقية، وأملًا أكيدًا في عدم الإحساس بالاستحالة، وأن كل شيء يمكن تحقيقه، وما لا تحققه هذا العام فإنك بالغه في العام المقبل، وهذا العنصر -المغامرة- في حياة طفل أبنود لهو من المكونات الأساسية في بناء شخصيته و«ترجُّله» (بلوغه سن الرجولة) قبل الأوان بكثير.

نحنحة

ما أذكره عن جدي قنديل؛ والد أمي، والذي بنى البيت الذي شكلني، هو صوته حين يتنحنح من أول الدرب، وكان هذا الدرب، يسمى بـ«الشارع الطويل»؛ لأنه يعتبر أطول شارع مبني في أبنود.

وكان حين يصدر عنه صوت الإعلان عن قدومه -وهو صوت يحمل رسالة سرية للنساء بأن يستترن- فكنّا نسمعه من بيتنا الذي يقع على هذه المسافة البعيدة من صوته، وهذا هو ما ذكرته منذ قليل، عما إذا كنت فعلًا في سن تسمح لي بسماع صوت نحنحة جدي وتمييزه، وأنني أتذكر هذه النحنحة، أم أنني أتذكر أقوال الآخرين عنها؛ فكثير مما نعتقد أننا رأيناه وسمعناه في تلك السن الخضراء الأولى هي أشياء تسربت من أقاصيص وملحوظات الآخرين، واتخذت صورة التخييل واستقرت في الذهن كأشياء مؤكدة لا تشك فيها إلّا حين تقف في نهاية العمر للتحقق منها، وفرز الحقيقي وغير الحقيقي، فإنك تقف حائرًا لا تملك الأدلة الواضحة على ذلك رغم أنك تكون قد عبّرت عنها في أدبك كأشياء يقينية.

درب النعوش

بالقياس إلى جيراننا في الدرب الطويل، فربما كنا أيسرهم حالًا، فلم تكن مساحة البيت -مهما كبرت- في ذلك الوقت تدل على السعة أو الضيق في الرزق، وليست لها أية دلالة اجتماعية أو اقتصادية؛ فقد كان بيت أبو العلا الذي يجاورنا من ناحية اليمين أكبر من بيتنا بأضعاف، وكان أفقر من بيتنا بأضعاف، وبيت محسب الذي يواجهنا من الجانب الآخر لا حد لمساحاته الفضائية التي تحيط به، بينما لم يكن هناك بيت تقريبًا. وكذلك بالنسبة لكل أهالي هذا الدرب، الذي سرعان ما فوجئتُ بتغيير اسمه إلى «درب النعوش»؛ وذلك لأنه في أوائل الأربعينيات جاءت الكوليرا، ونزلت بالناس كالكارثة، وأبادت أهل القرية، وصار الشارع الذي كان الممر الممهد الوحيد للخروج نحو المقابر أشبه بموكب واحد متصل لجنازة واحدة، ولم أرى طوال حياتي هذا الكم من الخشب الذي يحمل جثثا، وأنا ما زلت بعد في الرابعة، وأذكر تلك الغلّاية الضخمة التي في حجم الحجرة أو «أذان» البنزين في آبار البترول، الذي وضع في الاتساع الذي أمام بيت الحاج قنديل، فالدرب ضيق إلّا في هذه البقعة التي اختصرها جدي

مـن البيـت لتكـون فائـدة عامـة للنـاس، وقـد كان يلقـى فيهـا -الغلايـة- بالملابـس والأشـياء والأغـراض للغسـيل مـن الميكـروب، ولا أدري -وقـد كانـت ملاصقـة لجـدار البيـت- كيـف اسـتطعت أنـا وإخـوتي، الحيـاة، ولم يمـت مـن هـذا البيـت أحـد؟!

ولدت في «الحُسُومات»

تقـول السـيدة فاطمـة قنديـل -أمـي- إن ابنهـا عبدالرحمـن سـوف يعيش طويـلًا؛ لأنهـا ولدتـه وهـي مصابـة بالملاريـا، وقـد كان وبـاءً متفشّـيًا أيضًـا في ذلـك الوقـت، وكادت أن تمـوت، وهكـذا ولـدت ضئيـلًا نحيفًـا، بـل إنهـا تقـول إنهـا ولدتنـي في «الحسـومات»، وهـي سـبعة أيـام معروفـة، قليـل مـن ولـد فيهـا وعـاش، بـل إن الفـلاح المـصري لا يـزرع في هـذه الأيـام السـبعة ولا ينقـل شـجرة؛ لأنـه يعلـم مسـبقًا أنـه لا حيـاة لهـا.

والحسـومات هـي فـترة في المواقيـت القبطيـة التـي عشـت طفولتـي كلهـا لا أعـرف الزمـن ولا الفصـول إلا بهـا، ولأني ولـدت في الحسـومات فقـد كانـت سـاقاي -حينـما كـبرت قليـلًا وتعلمـت المـشي- لا تحملاننـي، وكانـت أمـي تربـط رُكبـي بشرائـط القـماش والدوبـار لـكي تتماسـك الركبتـان.

النقادي

أما كيف ولدت؟

فقـد كان والـدي مدرسًـا للغـة العربيـة في قريـة غـرب مركـز «قـوص» اسـمها «نقـادة»، وهـي قريـة شـبه قبطيـة، بمعنـى أن معظـم أهـالي هـذه القريـة «نصـارى». قريـة لهـا سـمات خاصـة؛ فهـي تعمـل بالنسـيج اليـدوي، وأمـام بـاب كل بيـت كانـت هنـاك الحفـرة التـي يركـب عليهـا «النـول»، أو في الغرفـة الخارجيـة للبيـت، وهـي قريـة مشـهورة جـدًا بنسـيجها الحريـري الـذي يصنـع منـه «الفركـة» وهـي العبـاءة التـي تلبسـها المـرأة في السـودان، وفي «أم درمـان» سـوف تُفاجـأ بـأن معظـم المحـلات يُذَيِّـل لافتاتهـا لقـب «النقـادي»، وتعتـبر مـع «إخميـم» في محافظـة سـوهاج مـن أشـهر المناطـق التـي ورثـت طـرق النسـج الفرعـوني، وأينـما مـررت في شـوارع هـذه القريـة سـوف تجـد الحبـال المنشـورة بـين بيتـين أو شـجرتين أو شـيئين، والتـي نـشر عليهـا الصبّاغـون حريرَهـم الطبيعـي بعد أن صبغـوه باللونين الأحمر والأسـود، وفي المتحـف البريطـاني في لنـدن -فيـما بعـد- اكتشـفت أن حضـارة بأكملهـا كانـت قائمـة عـلى أرض هـذه القريـة، وأن قسـمًا كبـيرًا مـن المتحـف البريطـاني يعـرض الأواني الفخاريـة وورق الـبردي منسـوبة إلى حضـارة «نقـادة».

أسهل ولادة

ولأن والـدي ارتبـط تعيينـه -بسـبب عـدم إكمالـه تعليمـه الأزهـري- بالتدريـس في مـدارس الأقبـاط؛ لذلـك نشـأ بينهـم وتنقّـل بـين مدارسـهم المسـيحية مـن مدرسـة الأقبـاط في قنـا، إلى المدرسـة الإنجيليـة في قنـا أيضًـا، ثـم سـاوموه ليرفعـوا أجـره إلى ثلاثـة جنيهـات إذا مـا قبـل أن يذهـب إلى «نقـادة»، وقـد قبـل الرجـل وظـل في «نقـادة» هـذه زمنًـا وتعـرّف إلى أفاضلهـا ومشـايخها وأقباطهـا، وحتـى الآن تأتينـي حكايـات مـن تلـك القريـة؛ فلـم ينسـوا ذلـك الرجـل الـذي كان مخلصًـا لمهنتـه أشـد الإخـلاص، وحملـت أمـي بي في تلـك القريـة القبطيـة، وحـين جـاء أوان الوضـع ركـب بهـا والـدي -الصنـدل الـذي ينتقـل للضفـة الأخـرى- ثـم ركـب القطـار مـن «قـوص» -ليـلًا- إلى «أبنـود».

وتقـول فاطمـة قنديـل وهـي تتذكـر وتضحـك: «ظـل طـوال الطريـق يقـول: إوعـي تعمليهـا في القطـر، وظـل يجاملنـي إلى أن وصلـت إلى بيتنـا، وكـدت أن ألـد في الطريـق، وانزلـق منـي عبدالرحمـن في أسـهل ولادة مـن بـين الأطفـال التسـعة الذيـن أنجبتهـم».

كلّ ذلـك عرفتـه فيـما بعـد، أمـا مـا عرفتـه في بدايـة تأمـل العـالم وتلمسـه؛ فهـو

أن هـذا الوالـد الشـيخ في قنـا، وأنـه شـيخ كبـير، وأنـه في وظائـف مهمـة -بالنسـبة لقريتنـا- وفي صبـاح شـتائي قـارس كانـت أمـي تضعنـي عـلى حجرهـا في الشـمس حـين مـر الشـيخ «محمـد عـلي أبـو طالـب»، وكان رجـلًا محترمًـا في قريتنـا، يلبـس اللبـس الهاشـمي ويضـع عقـالًا عـلى رأسـه، ومـا يشـبه «الجبـة»، وهـو يقـول لأمي: مبـارك يـا سـيدة فاطمـة.. فلقـد أصبح الشـيخ قـاضي مدينـة قنـا.

وكان يقصــد بالقــاضي -طبعًــا- المــأذون، وفعــلًا كان الحصــول عــلى منصـب كهـذا في مدينـة كبـيرة كتلـك يتطلـب الكثـير مـن العلـم والمعرفـة؛ فقـد كان القـاضي يُمتَحـن مـن قبـل قضـاة -حقيقيـين- يأتـون مـن القاهـرة ويَمتحنـون العديـد مـن طـلّاب المنصـب، وهكـذا فـاز بـه الشـيخ محمـود الأبنـودي لينتقـل بـه مـن فئـة إلى فئـة ومـن طبقـة إلى طبقـة.

وفي البيــت الريفــي الفقــير لجــدي قنديــل كنــت أرى كتبًــا مُنعــت مــن لمسـها؛ فهـي مـن تأليـف الوالـد، وكنـت في ذلـك الوقـت لا أدري محتواهـا.

صيد العقارب

عـلى السريـر الجريـدي الـذي كان يتوسـط الفنـاء المكشـوف، أذكُـرني وأنـا أمسـك ببوصـة طويلـة مـن أعـواد الـذرة النيليـة (العويجـة)، وأحـاول اصطيـاد الخفافيـش التـي تـروح وتجـيء في الفضـاء في حركـة شـبه ثابتـة وخـط سـير كأنـه مرسـوم، ولقـد اصطـدت كثـيراً مـن هـذه الخفافيـش برصـدي للمسـارات التـي تتخذهـا في الهـواء، وكنـت أنـزل رغـم ظـلام مـا بعـد الغـروب للبحـث عنهـا في أماكـن سـقوطها، في جسـارة، أتعجـب كثـيراً الآن كيـف كنـت أقبـض عليهـا، وكنـت أمسـك بالخفّـاش وأفـرد جناحيـه وأتأمـل وجهـه الفـأري، وكانـت هـذه واحـدة مـن متعـي الغريبـة التـي ظلـت تتطـور عامًـا بعـد عـام مـن صيـد الخفافيـش إلى صيـد العقـارب السـامة المرعبـة.

التروسة

كان أهـل والـدي يقطنـون الطـرف القبـلي مـن «أبنـود» فيـما يشـبه القريـة المسـتقلة يطلـق عليهـا «النزيلـة»، وهـذا يعنـي أنهـم نزلـوا إلى هذا المـكان، مـن مـكان مـا. وكان أهـل أبنـود ينظـرون إليهـم أيضًـا كأنهـم شيء مسـتقل عـن القريـة، وكان لقـب أهـل والـدي هو «التروسـة»، وحـين بدأت التنقيـب عـن أصـل هـذه التسـمية قالـوا إن جدي السـابع «عمـران» وقف بسـاقية وقـد قُطـع ترسـها الخشـبي الثقيـل في داخلهـا، وقـد اجتمعـت الرجـال بالحبـال والأكتـف والأذرع لإخـراج الـترس مـن السـاقية فعجـزوا، وأثنـاء مـروره صـاح عمـران في القـوم فخرجـوا مـن السـاقية وتحلّقـوا مـن حولـه ونـزل هـو ليقطعـه ويضعـه عـلى كتفـه بمفـرده ويخـرج بـه، وكانـوا جُـددًا بالمـكان، ولأن الأمـر أشـبه بالمعجـزة أطلقـوا عليهـم «التروسـة»، وفي الحقيقـة أن القصـة مضحكـة وخياليـة بعـض الـشيء، وقـد ظننـت لفـترة أنهـم ربمـا كان مـن بينهـم نجّـارون يصنعـون تـروس السـواقي، ولكنـي لم أجـد، ولبعـد الزمـن عـن اليـوم فإننـي اضطـررت لتصديـق هـذه الواقعـة التـي لم يعـترض عليهـا أحـد أو يؤيدهـا أحـد.

ويقول الوالد:

إننــا أصــلًا مهاجــرون مــن المدينــة المنــورة، وتصــادف مجيئنــا في زمــن أحــرق فيــه «الفرنســاوية» أبنــود وأبادوهــا؛ فوجدنــا المــكان بــلا أهــل، وظلــت أيضًــا هــذه المقولــة أشــبه باللغــز إلى أن عــثرت في كتــاب «بونابــرت في مــصر» (يُرجــع إليــه) مــا يؤيــد -عــلى الأقــل- الجــزء الأخــير مــن الحكايــة؛ وهــو إحــراق أبنــود عــن آخرهــا.

وفي الحقيقــة فــإن هــذا تــم مرتــين، ولا أدري في أيهــما جــاءت قبيلتــي، وهــل شــاركت في المعركــة الثانيــة مــن عدمــه، ولكــن أبنــود كانــت قريــة مقاومــة، وفي حملــة «ديزيــه» ســبح أبناؤهــا إلى المركــب «فكتوريــا» التــي كانــت راســية في النيــل وسرقــوا منهــا البــارود ثــم نقَبوهــا وأغرقوهــا أمــام شــاطئ القريــة في النيــل، وهربــوا بالبــارود ليضعــوه في مــكان مجــاور للقريــة أُطلــق عليــه -فيــما بعــد- رســميًّا اســم «البــارود».

واليــوم الــذي أغــرق فيــه الأبنوديــون الســفينة فكتوريــا، هــو العيــد القومــي لمحافظــة قِنَــا الآن، وفي «بونابــرت في مــصر» انتقــم الفرنســيون

انتقامًـا رهيبًـا مــن هــذه القريــة، وإن ظــل أبناؤهــا يقاتلــون مــن مئذنــة «المســجد العامــري الكبــير» في أبنــود.

وفي طفولتــي لاحظــت آثــار الحرائــق عــلى النخــل المحــترق، الــذي كان مــا زال واقفًــا، وحــين ســألت قــال لي رجــل كبــير: هــذه حرائــق الفرنســاوية.

وطبعًــا يحزننــي جــدًّا فيــما بعــد اكتشــاف أننــي لســت فرعونيًّــا أصيــلًا، بــل إن معظــم ســكان القريــة؛ بــل ســكان الصعيــد -باســتثناء المســيحيين- مشــكوك في أصالــة مصريتهــم؛ وإنمــا هــم قبائــل مهاجــرة مــن الجزيــرة العربيــة، النصــف حجــازي والنصــف يمنــي؛ ولذلــك لا زالــت المعــارك تــدور بــين قحطــان وعدنــان؛ اســتمرارًا للثــأر القديــم حتــى زمننــا هــذا.

«لبّة» أمي

أما أنا فلم أكن أعلم أن لي أهل أب، ولم يكن يربطني بهم أي نوع من الصلات في ذلك الوقت؛ فأهلي كلهم كانوا المرأتين: ست أبوها (جدتي)، وفاطمة قنديل (أمي)، وكنت نادرًا ما أرى أخي الأكبر «جلال» الذي كان يدرس في المعهد الديني في تلك الفترة، ويهرب منه كثيرًا في هجرات طويلة نحو السويس، مفضلًا العمل في سوقها عن الدراسة الأزهرية، وفي كل مرة له واقعة، كأن يبيع «لبة» أمه الذهبية؛ ليركب بها القطار إلى السويس، تاركًا الدراسة التي لا يحبها، وكانت أمي دائمًا تنوح على أشيائها المفقودة، وكانت جدتي دائمًا تصبّرها بأنه يومًا ما سيشتري لها الكثير غيرها، وسيعطيها ما هو أغلى من «لبّتها»، وفي الحقيقة فإنه لم يفعل ذلك أبدًا فيما بعد برغم علو المناصب، بل وربما لم يتذكرها.

الجنون العذب

وفي ليالي الشتاء القاسية، وتحت البُردة الصوف الغنمي التي كنا نتدثر بها، كانت أمي تخلق لنا الدفء الخاص بحكاياتها التي لا تنفد، والتي لا سبيل لحصر جمالها، والتي يحزنني أنني حينما كبرت وحاولت أن أسجلها كانت الذاكرة قد وهنت، وكانت الهموم قد أتت على مساحات خضراء شاسعة من تألق عقلها القديم، ووجدانها الذي كان يخلق الألوان والروائح والإيقاعات، وما زلت أذكر أطرافًا من قصص (نجلا في البلاد تجلى) و(بيض الحبل) و(ست الحُسن والشاطر حسن)، وعشرات من القصص لا أدري أين سمعَتْها وكيف احتفظت بها ذاكرتها، ولكن لا شك أن هذا لعب دورًا مهمًّا في تحريك الخيال، وخلق عالمًا مغايرًا للعالم الذي نعيشه؛ بما فيه من قسوة وواقعية مضنية، ولا شك أن ذلك جعلنا نحب ليل الشتاء، وكذلك تلك الأغنيات الفريدة التي كانت تدندن بها هي وست أبوها طوال اليوم، والتي حفظتُها منذ وقت مبكر جدًّا، لعبت دورًا أيضًا في التكوين الأصلي، وعلّمتني الانتقال بين العالمين: الواقعي والأسطوري، أما الأغنيات فقد استطعت أن أسجِّل بعضها بصوتها الجميل وجنونها العذب، على (الشرائط).

والدي محمود

حين انتقل والدي إلى تلك المناصب كمعلّم بارز في المدينة للّغة العربية وآدابها، وكإمام مسجد كبير بها، والتف الناس حوله لأنه كان رجل علم على حق، وكانت عيناه لا تفارقان صفحات الكتب، وكشاعر مهم له دواوين مطبوعة، ثم كمأذون شرعي؛ أتعجب كثيراً لهول الرحلة التي قطعها، وخصوصيتها، وقدرته على المغامرة الفردية بلا ونس أو استشارة في ذلك الوقت.

ولكي نتبين ضخامة هذه التجربة وما تحمله من جسارة ووعي وقدرة على التحمل، واختراق المستقبل وبزوغ أشكال الطموح والطرق إلى تحقيقها؛ علينا أن نعود إلى «التروسة» وكيف كان محمود، وكيف صار؟

تكشيرة

كان والـدي محمـود أحـد أربعـة إخـوة أبنـاء لجـدتي «يامنـة» (آمنـة)، والتـي شـهدتُها في سـنواتها الأخـيرة امـرأة قعيـدة مـن هـول السـمنة، جذوعها تلامـس ركبتيهـا، لا تبتسـم، وتدعـو بالويـل والثبـور عـلى الأحفـاد، أمـا جـدي (أحمـد) فـإني لم أره، ولكنهـم يقولـون في شـهادة جماعيـة للقريـة: إنـه لم يُـرَ مبتسـمًا مـرة واحـدة طـوال حياتـه في هـذه القريـة، وكانـوا في السر يطلقـون عليـه لقـب «غضـب»، ومهـما كانـت المفارقـة، ومهـما ضحـك الجميـع؛ فـإن عضـلات وجهـه كانـت عـلى مـا يبـدو قـد ثبتـت عـلى التكشـيرة، وورث أبي عنـه نصـف الصفـة، فلـم يضحـك أمامنـا يومًـا، وإنمـا كان يمـارس الضحـك مـع إخوانـه ورفاقـه في جلسـاتهم، وإذا تصـادف ومَـرَّ عليـه وجـه ابـن مـن أبنائـه كشـط الضحكـة بيـده مـن عـلى وجهـه، وكانـت لـه قـدرة فائقـة عـلى تحويـل وجهـه مـن حـال إلى حـال.

وأبنود أيضًا كان بها قدر لا بأس به من الإخوة المسيحيين يسكنون التلال المحيطة بـ «البِرْكة» التي تتوسط القرية، أو «النَّزّة» كما كانوا يطلقون عليها، ففي مواعيد الفيضان كان هذا المكان المنخفض الذي يتوسط أبنود يمتلئ حتى حافته بالماء الذي تتشكل على وجهه مساحات كبيرة من إفرازات خضراء تتماسك لتكوّن طبقة، وكنا نطلق على هذا اللون «خرَة أُمّ العجوز».

وكان المسيحيون، أو النصارى -كما كنا نطلق عليهم- لا يعملون بالزراعة؛ وإنما توارثوا النسيج والصباغة ومعاصِرَ الزيوت القديمة جدًّا، أو مطاحن الغلال، وكنت تجد معظمهم ذوي أيادٍ سوداء أو زرقاء - من الألوان- ومنذ يولد إلى أن يموت الرجل وهو يحمل هذه الألوان ويرحل بها.

وكنا نعرف -ونحن صغار- النصراني من المسلم من ألوان اليد، وكانت هناك طاحونة كبيرة يملكها نصراني يسمى «قلادة»، وحتى وقت متأخر كانت طاحونة قلادة موجودة ومهجورة، ومن غرائب الأمر أن يعمل الإخوة الأربعة: أبي وأعمامي في هذه الطاحونة؛ فمنهم من يزن الغلال،

ومنهـم مـن يرمـي بالغـلال في قُمـع الطاحونـة، ومنهـم مـن يسـتقبل الدقيـق مـن المواسـير القماشـية أو الكتانيـة، ومنهـم مـن يقبـض، وكان الرجـل -قـلادة- يثـق في الإخـوة الأربعـة ثقـة كاملـة، وكانـوا هـم شرفـاء، ولم يتمـرد عـلى هـذا العمـل سـوى محمـود، الـذي كان يقـف عـلى الميـزان؛ فعـلى مـا يبـدو كان ذا طبيعـة خاصـة، وطمـوح يخـترق جـدران طاحونـة قـلادة، فـكان يهـرب إلى كتّـاب القريـة الـذي كان يديـره رجـل قـال لي الوالـد إنـه كان عالمًـا حقيقيًّـا، اسـمه «الشـيخ عـلي الكريتـي»، وإنـه لـو كان الزمـان معـدولًا لـكان يجـب أن يكـون هـذا الرجـل شـيخًا للأزهـر الشريـف، ووجـد الرجـل في محمـود ضالّتـه، فصـار يعطيـه أجـزاء كاملـة مـن القـرآن، فيـأتي لـه بعـد يـوم واحـد وقـد حفظهـا عـن ظهـر قلـب في الـسر بعيـدًا عـن كل أهـل القريـة، وكان جـدي أحمـد -الـذي لم يُـر مبتسـمًا يومًـا- يـأتي إلى الطاحونـة ويظـل فيهـا، فـلا يجـد «محمـود» الـذي كان إخوتـه يـدارون عليـه ويسـترون «مرضـه»، فـكان يتجـه في صمـت ووجـوم نحـو «الكُتّـاب» فيجـد «محمـود» بـين الصبيـان، فيجـره مـن إحـدى رجليـه في دروب القريـة حتـى يلقـي بـه داخـل الطاحونـة مـرة أخـرى، ولم يكـن هنـاك مـن تعلّـم في قريتنـا -بصـورة جديـة- مـن قبـل؛ لـذا فجـدي أحمـد كان عـلى حـق في أن يعتـبر أن الصياعـة وضيـاع العمـر هـو خـارج إطـار العمـل، الـذي كانـت توفـره الطاحونـة في ذلـك الوقـت، وكان جـدي أحمـد يعلـم أن هنـاك عـشرات الأفـواه التـي تنتظـر اللقمـة التـي سـوف يـأتي بهـا محمـود مـن طاحونـة قـلادة، ورغـم ذلـك لم يتوقـف محمـود عـن الهـروب إلى الشـيخ عـلي الكريتـي، ولم يتوقـف الرجـل -الـذي لم يبتسـم في حياتـه- عـن جـرِّه في شـوارع القريـة، وصـار هـذا مـن المشـاهد المألوفـة جـدًا وبصـورة يوميـة في قريتنـا.

تحفة

أذكـر، وأنـا في الثالثـة أو الرابعـة، أن كانـت أمـي تجلـس عـلى عتبـة الباب الكبير، وأنا ألهو بتراب الدرب تحت ناظريها، ومر«محمد علي أبو طالب» وهو شخصية فريدة في قريتنا؛ فقد كان مُصرًّا على ارتداء العقال والكوفية، وكأنه قادم للتو من الجزيرة العربية، وكان الرجل من أثرياء القرية ورموزها، بنى مدرسة وناديًا تصعد إليه بسلالم رشيقة، وما زال موجودًا حتى الآن (تسعينيات القرن الماضي) وهو أهم تحفة معمارية في قريتنا، وكان رجلًا سمح الملامح، يحيطه جو روحاني، وينعكس ذلك على سلوك أهل القرية تجاهه؛ فقد كانوا يبجلونه تبجيلًا خاصًّا، وكان ينشر من حوله عطره القادم من الجزيرة أيضًا، وكان في شخصيته أقرب إلى الروح منه إلى الجسد، وصاح بأمي: مبروك يا أم جلال أصبح زوجك قاضيًا في المدينة.

القطيعة

حتى هذا الوقت لم أكن قد رأيت أبي، فمنذ تعلم وهرب إلى المدينة وساعده رجل علم يُدعى «الشيخ محمد علي بدوي» في أن يلتحق بالمعهد الديني في قِنَا، وقد لفت نظره نبوغ الصبي الذي هو والدي، فكانت رعايته له أقرب إلى التبنّي، وحين تخرّج والدي وعمل أستاذًا للغة العربية في المدرسة الإنجيلية بدأت علاقته بالقرية تفتر، وعلاقته بأمي تصيبها بعض الاضطرابات، وعلى الرغم من أن والدتي كانت شديدة الجمال، بل ربما أجمل فتيات القرية؛ فإنه ربما أحس بالفارق الثقافي وفارق الوضع الاجتماعي بعد أن أصبح ما أصبح، فحدث نوع من القطيعة، وأخذ هو الولدين الكبيرين: جلال وعبدالرحيم ليعلّمَهما في المدينة، وترك لها بقيتنا. لم يكن والدي كريمًا، ومن تجربته العصامية ومنافحته للظروف وارتطامه في رحلة البحث والصعود، تعلّم قسوة القلب إلى حد كبير، وفي المقابل عاشت المرأة أشبه بطيف منها إلى حقيقة إنسانية مؤكدة.

مأساة أمي

كانت والدتي حين كان عمرها أحد عشر عامًا قد زُوِّجَت برجل كبير السن ذي مقام عال هو عمدة إحدى القرى المجاورة، وتحكي المرأة بمرارة وطرافة عن الفترة وتقول:

«كنت طفلة لا أعلم شيئًا، وسمعتهم يقولون بزواجي، وفي ليلة وضعوني في هودج سار بي طويلا مع أنغام الدفوف والمزامير وزغاريد النسوة، وأنا أضحك، لم يكن لديّ في تلك الليلة سوى الضحك، فكأني ذاهبة مع البنات لنلهو في مكان بعيد، أو أنني في بداية تعلم لعبة سوف أكتشفها حين تنتهي، فقد تعودنا أن تعلم البنات الكبيرات ألعابهن للصغيرات من أمثالنا.

كنت ساذجة أعيش في أحضان أبي وأمي، ولا أعمل بالبيت؛ فقد كان البيت مستريحًا ماديًّا في عصر قنديل، ووجدت نفسي حين جاء الليل في منزل غريب وقرية غريبة، وانصرف الناس وغاب أهلي عن عيوني فانخرطت في بكاء طفولي وأصررت على العودة من حيث جيء بي، وأنا لا أفهم شيئًا، فكأنني اختُطفتُ، احتضنتني النساء الكبيرات في هذا المساء، ونمت في حضن (حماتي) التي لم أكن أعلم أنها حماتي، ولم

أكـن أدري أننـي قـد تزوجـت فعـلًا، ولم أكـن أعلـم مـا الـزواج؟!

وفي الصبــاح بــدأت النســوة يطمئننــي، ويلاعبننــي ويعطيننــي بعــض الحلـوى كي أهـدأ، ثـم قليـلًا فقليـلًا بـدأت النسـوة يسـمحن لي باللعـب مـع الفتيـات الصغـيرات أمـام الـدار.

كل هــذا وأنــا لا أدري مــن هــو زوجــي، ولم أره، ولكــن كانــت هنــاك مفارقـة؛ فقـد كنـت حـين ألعـب أمـام بيـت أبي تقـول لي الطفـلات: «أبـوكي جــه» فأرمــح إلى داخــل الــدار، وأصبحــت في هــذا المــكان وأنــا ألعــب يقولـون لي: «زوجـك جـه»، فأفعـل مثـل هـذا الفعـل وأرمـح إلى داخـل الـدار!

ولم يكـن في هـذا الوقـت قـد نبتـت لي أثـداء، أو خرطنـي خـراط البنـات، كـما يقولـون؛ ولـذا ظللـت بمنـأى عـن الرجـل لثـلاث سـنوات.

وبعــد الســنوات الثــلاث وكانــت (حــماتي) قــد هيأتنــي لتلــك اللحظــة التـي أُصبـح فيهـا زوجـة، هاجمنـي الرجـل بوحشـية ففزعـت الفزعـة التـي صاحبتنـي طـوال حيـاتي، وظللـت سـاهرة وقـد نـام الرجـل، ومـع بصيـص نور الفجـر خرجـت مـن الحجـرة وقفـزت جـدار سـور المنـزل أجـرى في دروب القريـة، ودمـي يلطـخ سـيقاني وثيـابي، وتسـللت إلى بيـت أبي قنديـل وأنـا واقعـة بـين رعبـين: رعـب مَـنْ هربـت منهـم، ورعـب مَـنْ هربـت إليهـم.

ولم أجــد مفــرًّا مــن الدخــول إلى عشــة الفــراخ الطينيــة ذات الفتحــة الضيقــة، وهنــاك بــين الفرّوجــات نمــت نومًــا عميقًــا.

أطلـت أمـي (سـت أبوهـا) في الصبـاح داخـل «البِنِّيَّـة» لإخـراج الدجـاج وجمــع البيــض، فوجدتنــي راقــدة، فلطمــت خدودهــا وأيقظتنــي شــبه

غائبـة عـن الوعـي، وأحسسـت يومهـا أننـي ارتكبـت عـارًا كبـيرًا، ولكـن غـزارة النزيـف ألقـت بي إلى هـوة مـرض طويـل، وأصبـت بــ «الصُفـير»، أفهـم الآن أنـه كان بسـبب الدمـاء التـي نزفتُهـا فاصفـرَّ وجهـي، وكنـت أقـرب إلى المـوت.

ظللـت ثلاثـة شـهور راقـدة في الفـراش، لا أدري بمـا يـدور حـولي، وبعنايـة ست أبوهـا بـدأت شـيئًا فشـيئًا أسـترد بعـض الحيـاة، وفى أحـد الصباحـات حملنـي قنديـل عـلى ذراعيـه وشـق بي القريـة أمـام الجميـع وذهـب بي إلى زوجـي يقـدم الاعتـذارات، والأسـباب بأننـي مـا زلـت صغـيرة ولا أفهـم شـيئًا، وأنـه يجـب أن يغفـر لنـا!

ومنـذ تلـك اللحظـة تمـردت وأقسـمت عـلى ألَّا يحـدث لي مـا حـدث، وكنـت أتحـول إلى نمـرة شرسـة إذا مـا حـاول الاقـتراب منـي.

أمـا بالنسـبة لمقاومتـي للنسـاء فأظـن أننـي قـد ادعيـتُ الجنـون، ولم يكـن ادعـاءً؛ بـل كان جنونـًا حقيقيًّـا، وفي النهايـة لم يجـد الرجـل مفـرًّا مـن تطليقـي، وهكـذا عـدت للحيـاة التـي أحـب مـرة أخـرى.

ولم أكـن أعلـم أننـي قـد أصبحـت مطلقـة، ولم تحـاول سـت أبوهـا -أمـي- أن تفهمنـي شـيئًا مـما حـدث، وقـد ظلـت الكوابيـس تهاجمنـي لفـترات طويلـة، ومازلـت أعـاني حتـى الآن».

الزواج الثاني

هـذا قبـل أن يظهـر أبـوك ببضـع سـنوات، ويرسـل مراسـيله ويحـاصر الحـاج قنديـل برجـال القريـة، فجلـس الرجـل معـي ليفهمنـي أن البنـت للـزواج، وأن مـا حـدث كان خطـأ، وأن الأمـر ليـس عـلى تلـك الصـورة التـي عشـتها، وكيـف أنـه متـزوج مـن أمـي، وكيـف أنهـم سـعداء، وأن كل نسـاء القريـة متزوجـات، وأشـياء مـن هـذا القبيـل.

كان أبـوك يكـبرني بسـتة عـشر عامًـا، وكان حـين رأيتـه يلبـس جُبّتـه وعمامتـه كرجـل ديـن، وأوحـى لي مظهـره ببعـض الأمـان، عـلى عكـس الصـورة التـي صدمتنـي في الرجـل السـابق، ولكنـي امتعضـت؛ إذ إنـه لم يكـن جميـلًا، وكان أنفـه كبـيرًا، وشـفاهه غليظـة، وكان يكـبرني، لكنـي كنـت قـد كـبرت إلى حـد مـا. وهكـذا تقبّلـت الأمـر عـلى مضـض أيضًـا، ولكـن بـشيء مـن التمـرّس والإدراك، وهكـذا تزوجنـا ليأخـذني إلى نجعهـم في أطـراف أبنـود.

والدي.. يعيش لنفسه

كان نجع أبي -وما زال- يسمى «النزيلة»، ويعني اللفظ لأول وهلة أنهم ليسوا أبنوديين أصلًا، ولكنهم جماعة نزلت إلى ذلك الحي، أو إلى ذلك المكان وكوّنوا حيّهم الخاص وقريتهم الخاصة، وعيّنوا من كبرائهم مشايخ بلد، وشيوخ خفراء، ولم تكن بينهم فوارق اجتماعية جامحة، وكانوا جميعًا فقراء على وجه العموم؛ أي أنهم لم يأتوا بشيء معهم، وإنما حاولوا التأقلم مع المكان واشتروا الأراضي على مدخل أبنود، وصار هذا مكانهم، وكان والدي هو أول من تعلم منهم وخرج من هذه الدائرة المغلقة ليُكوِّن واقعًا آخر ليس مستحدثًا على «النزيلة» فقط؛ وإنما على أبنود كلها.

أي أن الرجل علّم نفسه -بالطريقة التي ذكرنا من قبل- وذهب إلى المدينة وصار أشهر من جاء منها -بل وأشهر شخصية فيها، وبدأت مواهب الرجل تتفتح في مدينة قنا- فصار شاعرها، ورجل دينها الأول، وتصدَّرَ المجالس، واستغرقته هذه الرحلة؛ رحلة القراءة والكتابة والتعلم والتعليم، حتى نسي أمي في بيت جدي قنديل، وأغلب الظن أنه اعتمد على شراء والدها، ثم جاء هذا الرجل ذو العقال والكوفية:

محمد عليّ أبو طالب؛ ليزف لأمي وأنا ألعب على تراب الدرب، نبأ نجاح والدي في مسابقة المأذونية ليزف إليها بشرى أن والدي أصبح قاضي المدينة، وهي التسمية التي كانت تطلق على المأذون الشرعي آنذاك، ولا أظن أن فاطمة قنديل يومها فهمت شيئًا أو أنها استقبلت النبأ ببشاشة؛ فلقد كان المنصب لوالدي، ووالدي كان يعيش لنفسه، وكانت تعلم أن ذلك لن يؤثر في كثير أو قليل في واقعها الخاص.

كان جدي قنديل حين يعود من السويس التي كان يقيم فيها يملأ البيت مالًا وطعامًا وفاكهة، وكان شخصية رائعة بكل المقاييس، وأظن أن الكثير من صفاته هي التي انتقلت إلينا، فأنا مثلًا كريم جدًّا على عكس أبي، وأظن أن هذا جاءني من عروقي القنديلية، وتربية الرجل في الصغر؛ فقد كان يبالغ في تدليلنا محاولًا أن يُنْسِي أمي واقعها الذي لم يكن يَخْفَى عليه.

الصفاء الأسود!

في «النزيلة» كانت أمي قد انتقلت من واقعها الرتيب إلى واقع «النزيلة» الجاف القاسي الفقير متحجر القلوب، ولم يكن في مستطاعها أن تفعل فعلتها القديمة مرة أخرى للهروب من الواقع الجديد؛ فقد كانت جدتي لأمي شديدة البخل؛ لفقرها طبعًا، وكانت الحياة شبه جماعيّة، وأثار تميز أمي بالملابس التي يشتريها لها والدها حفيظة هذا الكوم الأسود من النسوة الحافيات، لابسات الأسمال السوداء؛ فكَرِهَتْ منذ أول لحظة -رغم تآمر الجميع على تغيير طباعها الطيبة- أن تتحول إلى امرأة قاسية أو امرأة تشبههن على الأقل. قالت لها إحدى عماتي: «جلبي يوم ما يصفى لك يبقى لون دي»، وأمسكت بطرحتها السوداء!

وظلت أمي حتى كبرنا، وربما قبل أن ترحل بقليل، تتذكر مثل هذه العبارات كأنها قيلت بالأمس، ولكن لم يمنعها ذلك من أن تخترق بخل أبي وتصبح هي المسئولة عنهن وعنهم جميعًا، وتقتطع من زادها في المدينة لكي ترسل إليهم بالمعونات، وتثور في وجوهنا غاضبة بعد أن أصبحت لنا مواردنا؛ لكي تنتزع منا المال في المواسم والمناسبات، وترسل به إليهم، وأصبحتْ فيما بعد راعيتهم الحقيقية، ليس من أجل أبي؛ ولكن لأنها شخصية جُبلت على الخير والرحمة، وانتمت إليهم انتماءها لزوجها، متناسية كل أفعالهم معها أثناء إقامتها بينهن.

فجأة مات قنديل.

وأذكر ست أبوها جدتي، حين عادت من السويس بعد دفنه، وهي تلطم خدودها بين النسوة والعويل والبكاء الحقيقي، وأنا غير متبيّن لما يحدث، وانتهى بذلك فصل كامل في حياة أمي؛ فلم يعد لها إلّا البيت الكبير، وبضع قطع متناثرة من الأرض خارج أبنود. ووالدي في المدينة يثبِّتُ أوضاعه المستقبلية.

ووجدت المرأتان -أمي وجدتي- نفسيهما وحيدتين في هذا العالم، مسئولتين عن خمسة أطفال، بخلاف الاثنين اللذين التحقا بالشيخ -والدي- في المدينة. وشحَّتْ الأقوات أثناء الحرب العالمية الثانية، وإذا كانت القاهرة قد أحسّت بالأزمة؛ فعليك أن تتخيل تلك القرى البعيدة، الموغلة في البعد، والتي لا تصل إليها أيدي السلطات، والتي لا يسمع بها أحد؛ فإن الحياة كانت قاسية إلى أبعد الحدود عادة، فما بالك بوقت الحرب؟

ودخلت المواد التموينية إلى البطاقات، وقُنِّنَتْ هذه المواد الشحيحة؛ فقررت أمي أن تتاجر فيها من أجل إنقاذ الأرواح الخمسة التي تعولها،

ولأنهـا لم تكـن امـرأة بيـع وشراء، ولم تكـن لهـا أدنى خـبرة بالحيـاة العمليـة خـارج الـدار؛ فإنهـا تعرضـت لمـآزق بالغـة العـسر، وكادت تسـجن مـرات؛ فقـد كانـت تذهـب إلى المدينـة بالقطـار وتـأتي بصفيحـة الزيـت وأقـماع السـكر، وتعـود بهـا في القطـار وهـي تخبئهـا تحـت ملاءتهـا الصعيديـة كأنهـا تغطـي طفـلًا، وتظـل ترتعـد حـين يمـر الكمسـاري أو المفتـش، لتنـزل بهـا في محطـة أبنـود، وتبيعهـا جـزءًا جـزءًا للنـاس؛ لتكسـب بعـض القـروش التـي تتيـح لهـا إطعامنـا.

وفي إحـدى المـرات انفلقـت منهـا صفيحـة الزيـت في القطـار، وظلـت تخبئهـا بملاءتهـا التـي غرقـت زيتًـا، وحـين توقـف القطـار هربـت بجلدهـا، وظلـت هـذه المـلاءة الملطخـة بالزيـت منشـورة عـلى حبـل (معـلاق) تشـير إليـه إذا تجـاسر أحدنـا ورفـع ناظريـه في وجههـا، أو عاملهـا معاملـة غليظـة، أو نطـق بكلمـة نابيـة، وتقـول: «هـذه مـلاءتي؛ شـاهدي الوحيـد عـلى أننـي أبقيـت عـلى حياتكـم، وجعلـت منكـم هـؤلاء النـاس».

وحـين انتقلـت أمـي فيـما بعـد إلى المدينـة، وحتـى بعـد أن تغـير واقعهـا تمامًـا، ظلـت هـذه المـلاءة «المزيّتـة» معلّقـة عـلى إحـدى الشـماعات حتـى ماتـت، تريهـا لأبي تـارة، وتريهـا لنـا تـارة أخـرى، وكانـت أحـد رمـوز فقرهـا المهمـة عـلى نضالهـا وشـقائها مـن أجلنـا، وبسـبب معاملـة الشـيخ لنـا ولها.

كان لجـوء أمـي للتعامـل مـع قسـوة الحيـاة بهـذه الطريقـة الخارجـة عـلى تكوينهـا الخـاص، هـي دفاعهـا الوحيـد ضـد المـوت، وضـد أن تفنـى هـذه الأسرة التـي شـقيت في بنائهـا.

رقابة «يامنة»

إذن كانت لي أبنودان وليست أبنودًا واحدة: أبنود أمي، وهي أبنود الحقيقية، وأبنود أبي، وهي «نجع النزيلة» الذي يعيش فيه أهلي. لا أذكر أني أكلت اللحم مرة واحدة في بيت أمي.

كانت «يامنة» (آمنة) والدة أبي، تجلس في الساحة التي تتوسط الدوّار التي تتخذ شكلًا دائريًّا لتراقب جميع الأبواب وجميع الرجال، وتعلم كل ما يدخل وما يخرج من أبواب هذه الدُّور، وتشكِّل رقابة صارمة على النجع بأكمله، وكانت دائمًا تتحسس طرف جلبابي لتعرف نوع القماش، وتحاول تقدير ثمنه لتقدر الدخل المادي لأمي في أبنود الأخرى.

ولا شك أنني كنت صغيراً جدًّا، حين بدأت علاقتي بـ «النزيلة»؛ فأول ما أذكره هو جنازة عمي «علي»؛ بل ربما كان أول من علمني أن الناس تموت؛ فقد سبق موته موت جدي قنديل، وأذكر نعشه الفقير، والنعش في أبنود يسمى «الكَرَب» وهو اسم مُوحٍ جدًّا، والواقع أن لغة «النزيلة» أفصح من لغة أبنود الحقيقية؛ مما يدل على أنهم نزلوا من الجزيرة العربية فعلًا، كما شرح لي أبي فيما بعد.

البتّاو

كانـت للأبنوديـين متعتـان؛ ففـي بيـت جـدتي كانـت البـئر والنخـلات في الكـرم الملحـق بالبيــت، وكان «الخَبِيـز» والأقـراص الخاصـة بنـا، وتنــوع الأطعمـة -عـلى تواضعهـا- وتعلمـت في البيـت صعـود النخـل ونـزول البـئر، وتعلمـت قفـز السـور العـالي نحـو جنينـة عـلي غـزالي المحمّلـة بالرُّمَّـان، كـما ذكـرتُ، وفي ليـالي الشـتاء كنـا نفـترش الديـوان الـذي في مدخـل البيـت، ونشـعل «المنقـد» ونشـوي «خبائـط» الـذرة النيليـة، ولا أظـن أننـي ذقـت شـيئًا مثـل لـذة طعـم «الخبيطـة» المشـويّة في تلـك الشـتاءات الفقـيرة البعيـدة، كـما كانــت أمــي وجــدتي ســت أبوهــا تحمــلان تراثًــا لا ينفـد مـن الأقاصيـص الأسـطورية، التـي لم أصادفهـا مـرة أخـرى في مـكان آخـر، ومـا زلـت أذكـر قصـة «نجـلا في البـلاد تِجـلى» وقصـة «بيـض الحبـل» عـن رجـل أكل بيـض الحبـل الـذي يبيعـه رجـل للنسـاء العاقـرات، فحبـل وأنجـب وتخلّـص مـن حملـه في الـزرع، وخطفـت الحـدأة فتاتـه الجميلـة وطـارت بهـا إلى عشـها في قلـب نخلـة، وظلـت تخطـف لهـا حُـلِيَّ النسـاء والأشـياء البراقـة حتـى جعلـت منهـا بهجـة للناظريـن، وحـين جـاء الشـاطر حسـن ليسـقي حصانـه مـن سـبيل المـاء تحـت النخلـة، جفـل الحصـان

عـدة مـرات لانعـكاس الذهـب عـلى سـطح المـاء، فنظـر إلى أعـلى فوجدهـا شـابَّة جميلة..إلـخ.

وهـي قصـة لم يسـتمع لهـا أحـد غيرنـا مـن قبـل، وكذلـك «نجـلا..» وكان الاسـم غريبًـا؛ فليـس في قريتنـا مـن تحملـه، وكانـت تغنـي بصـوت جميـل وشـجي أغنيـاتٍ -أيضًـا- لم أصادفهـا خـلال رحلتـي الطويلـة لجمـع الأدب الشـعبي فيـما بعـد، وكأن المرأتـين كانتـا مـن عنقـود خـاص مـن البـشر تتدليـان مـن شـجرة شِـعْر.

أمـا في الجانـب الآخـر؛ فقـد كان النهـر حـين يفيـض تلاصـق مياهـه جـسر «النزيلـة». ومُتَـع النهـر لا تُحـد؛ فنحـن نسـبح ونصيـد ونلهـو ونتبـارى، فتعلمـت صيـد السـمك منـذ وقـت مبكـر، وأصبحـت أعـرف نـوع السـمكة التـي تـأكل في السـنارة رغـم طمييَّـة المـاء، وحـين كنـت أجـوع بعـد السـباحة أتسـلق أيـة نخلـة لأمـلأ سـيالتي (جيبـي الجانبـي) بلحًـا، أمـلأ بـه بطنـي، أو أصطـاد سـمكتي التـي أشـويها، وأشـحذ «بتّـاوتي» -وهـي مـن الـذرة النيليـة- لأغمـس بهـا السـمكة، فأشـبع وأعـود للهـو.

بالنسـبة للبتّـاو، وقـد كان هـو الخبـز الوحيـد في ذلـك الوقـت؛ فإنـه أثنـاء ري الحيـاض، كانـت الأرض تـزرع لموسـمين: «الجيـض» (القيـض)، و«الدّمـيرة». أمـا القيـض فكـما هـو واضـح مـن الكلمـة؛ هـو القيـظ؛ أي الصيـف، وقـد كانـت ذرتـه النيليـة بيضـاء، قاسـية، صلـدة الغـلاف، وكان طعـام أدنى طبقـات الأمّـة، وأمـا الدمـيرة فكانـت ذرتهـا صفـراء وكانـت أهـون قليـلًا مـن البتـاو «الجيـض»، وكنـا نأكلـه حـين ترغـد الحيـاة.

أحمد «سِمَاعين» الحقيقي

شيء واحد إيجابي كبير كان في «النزيلة»؛ وهو ابن عمي «محمد مصطفى»، وهو صبي يتيم، كان والده أول من تُوُفِّيَ من الإخوة الأربعة، وكان اسمه «مصطفى»، ويقال إنه كان رجلًا هادئًا بسيطًا طيبًا أنجب محمدًا هذا من «نوّارة» امرأة عمي، ومات، وتزوجت نوّارة بـ«موسى العَبور»، و«العَبور» تعني الخروف الصغير، وتركت نوّارةُ محمدًا لدى جدتي يامنة، وكان يقضي لها كل شيء، ولا ينال حمدًا ولا شكرًا، وكأي يتيم في الدنيا؛ فإن مواهب محمد مصطفى تفتّحت في وقت مبكر، وكان أنموذجًا للإنسان الفالح؛ فإذا كنا نصطاد سمكة كان يصطاد خمسًا، وبعد الظهر كان ينزل إلى حقول الناس ليقتلع منها «النجيلة» و«الدفرة» والنباتات الطفيلية، ويكوِّم كومة كبيرة يذهب بها إلى السوق ليبيعها بملّيمَيْن، يشتري بهما الطعمية التي كانت غرامه الوحيد، أو يشتري بطيخة، وكان يأكلها بقشرها، وحين نسأله يقول إن الرجل حين أخذ مني ثمنها لم يقل لي إن هذا ثمن ما بداخلها فقط. وكان يُرى أحيانًا هائمًا على وجهه، على الجسور في قيالة الصيف المحرقة، ينوح كالنساء ويُلْقي بالمراثي علنًا، وكان يرثي نفسه في هذه المراثي، والغريب أن النسوة لم تكن

تتشاءمن منه، وهنّ اللائي عِشْنَ على التشاؤم، وحين تعترض إحداهن عليه كان يقول: «أنا أعدِّد على نفسي؛ فما بالكنَّ أنتن؟!».

وكان يعرف كيف يصطاد اليمام والحمام البري بـ «القلّاب» (الفخ)، وكان صبورًا تملُّ صبره، وتضطر في النهاية أن تتركه يمارس صبره الفريد، ويعود آخر النهار محمّلًا بالحمام الذي لم يكن يأكل غيره من اللحوم؛ فقد كان يكره بقية الطيور، ولا يأكل لحم الحيوانات.

وحمل محمد مصطفى الهمَّ صغيرًا، لكنه كان قويًّا جدًّا في مواجهة السنوات، وكان بالنسبة لي رمزًا وأنموذجًا للبطل الذي يقاوم الأزمنة، وهو الذي أوحى لي فيما بعد بكتابة «أحمد سماعين -سيرة إنسان».

فهو محمد مصطفى هذا «الأحمد سماعين»، ويعمل منذ بلغ أطراف الرجولة عاملًا في مناجم حميضات للفوسفات، في البحر الأحمر، مصدورًا عليلًا، أنجب جيشًا من الأبناء.

الرعي.. مدرستي الكبرى

فى بيت جدتي -أيضًا- ست أبوها في أبنود تعلمت الرعي، وكان عليّ أن أستيقظ قبل الشمس في الشتاء البارد، وأن أسوق النعجتين العجفاوين لجدتي، وبعض الماعز لمسنات أخريات لا يملكن طفلًا يصلح للمرعى.

وأعتبر أن تجربة الرعي في حياتي هي المدرسة الكبرى التي حصلت فيها كل الخبرات التي واجهت فيها الحياة فيما بعد؛ فلكي تصبح راعيًا للأغنام عليك أن تتعلم اسم كل نبتة في الأرض وخصائصها ووظائفها؛ فقد تكون سامّة فتفقدك ثروة العائلة، أو «مليِّنَة» فتصاب النعجتان بالإسهال، وتفقدان الكثير من وزنيهما، عليك أن تعرف ما هو مفيد في الأرض، وما هو ليس بمفيد، ولماذا تأكل الأغنام تلك النبتة ولا تأكل الأخرى.

ويسلم الأطفال -بعضهم البعض- الخبرات بالنباتات والفصول، وبدأتُ أتعلم المواقيت بالظل، ومرور قطار الظهر وقطار العصر.

وتعرّفت كذلك في تلك الفترة المبكرة جدًّا من حياتي، أنواع النباتات الطبية كـ«الدمسية» و«الغبيرة»، التي كانوا يستحمون بها إذا ما أصيبوا بالروماتيزم أو آلام المفاصل، وتلك النباتات التي تستعملها النسوة في البخور

أو فك الأسحار، أو إشعالها والمشي فوقها لتتخلص العاقر من عقرها.

واكتشفنا في ذلك الوقت المبكر المخدرات من ظهور النباتات البرية؛ كـ «شوك العقول»، وخلافه من «الداتورة البرِّيَّة» و«السكلان»، وكنا نتعاطاها ونترنح على حواف قنوات المياه، أو نستلقي في ظل أشجار السنط الشوكية الضخمة؛ كي ينقضي اليوم دون إحساس بعبء الوقت، وكان الغروب يسرقنا أحيانا فنعود في الظلمة، وقد نفقد إحدى النعجات، وينطلق الدرب بأكمله نساء ورجالًا وأطفالًا للبحث عنها في حقول القرية الشاسعة.

الغناء بدلًا من الصراخ

فى الرعي أيضًا بدأت أتسمّع لغناء السواقي والشواديف والنوارج.

ولـكل نـوع مـن هـذه الأعـمال نـوع مـن الغنـاء، وكنـت أعـرف هـؤلاء المغنـين بالطبـع؛ ففـي الواقـع أنهـم لم يكونـوا يغنّـون ليظهـروا حـلاوة أصواتهـم، وإنمـا كانـوا يشـكون الحيـاة ويصرخـون كي تسـمعهم السـماء، ويواجهـون بالغنـاء الحيـاةَ القاسـيةَ والظـروفَ العصيبـةَ، كـما أننـا -نحـن الأطفـال- كنـا نغنـي، وبالـذات الفتيـات الـلاتي كـن يشـاركننا الرعـي، ومـا زلـت أذكـر البنـات وهـن يغنـين:

«البنت جالت لابوها

جاك شوكة في ركبتك

كل البنات اتجوزت

وأنا قاعدة في خلقتك

البنت قالت لابوها

جاك شوكة في قدمك

كل البنات اتجوزت

وانا بارعى في غنمك»..

وحين يمر القطار[1] -وكانت قطارات البضاعة بنية اللون، عرباتها كثيرة وطولها لا ينتهي- كانت البنات تصدح بالغناء للوابور، وأذكر من ذلك:

«يا وابور

يا وابور

يا احمر يا دومي

لما صرخ الوابور

طوّرني من نومي»..

وبالفعل لم يكن لون الوابور أحمر ولا بنِّيًّا، ولكنه في لون ثمرة «الدوم» الناضجة، و«طوّرني»؛ أي أيقظني مفزوعة، أو كما تغنين:

«يا بابور يا بابور

يا احمر يا عدسي

لما صرخ البابور

طوّرني من نعسي»..

١ وسط معاناة الطفولة كان القطار مصدرَ بهجة كما يتذكّر الأبنودي:
كنّا أطفالًا نرعى الأغنام في الغيطان المحصورة. كنّا فقراء، جهلاء، تحت شمس متسلِّطة، ووقتٍ لا حدودَ له ولا ضفاف، نسير حفاةً، تمزّق أقدامنا بقايا أعواد القمح أو «القور» (وهو البقايا الغليظة الحادّة كالسكاكين لأعواد الأذرة النيلية. كنا نقطع الوقت باللعب، ولكن الزمن الثقيل كان يظلّ دائمًا ثقيلًا، بطيئًا. كانت بهجتنا الوحيدة هي مرور القطار: قطار الصبح، وقطار الظهر، وقطار المغرب. كان أهمها قطار الظهر، نجلس -بعد أن نحتفي به- لتناول غداءنا، أمّا الاحتفاء به فكان في هذا السبيل من الأغنيات التي نلاقيه بها، نجري ونتسلق أحد «المزلقانات»، ندفعها بأقدامنا ذهابًا وجيئة، ونحن نغنّي له. ولأن قطارات البضاعة المارّة بُنّيّةُ اللون؛ فقد كنّا نشبّه لونَها بلون «العدس أبو جبّة»؛ فهو بُنّيٌّ مثلها، أو نشبّه لونها بلون الدوم، فربّما لم نكن نملك أو نرى غيرهما من الألوان البُنّيّة من حولنا، عدا جذوع النخل. أما القطار فقد كان -وربما لا يزال- اسمه «البابور».
آخر الليل- السابق.

اكتشاف الألوان

وهنا تبدأ أنت في اكتشاف الألوان؛ فإذا لم يكن لك لون بعد كالأحمر والأزرق والأخضر؛ فعليك أن تخلق اللون، وبالفعل فإن حبة العدس الناضجة بقشرتها التي لا هي بُنِّيَّة ولا رمادية، ولا حمراء، تشكِّل لونًا خاصًا ليس ببعيد عن لون قطار البضاعة، فتعلمت أنا أيضًا أن أخلق ألواني منذ تلك الفترة، وهم هناك لا يقولون أخضر أو أحمر، وإنما يقولون: «كرنبي» و«عنابي» و«برسيمي».. إلخ. وهذا الالتحام بالطبيعة لم نكن نخترعه، ولم يكن كلمة أو شعارًا كما نطالب به الآن؛ ولكننا كنا قد وقعنا في حبائله وأصبحنا جزءًا منه، يكوننا ونكونه؛ ولذلك فإنهم حين يقولون إن الرعي كان دائمًا وظيفة الأنبياء؛ فإنهم على حق في ذلك الصفاء الذي يتحقق للتأمل وللسماع والاستيعاب والارتباط الشديد بالأرض، والتفكير في الكون والخلق والخالق، والاستسلام لأحلام اليقظة النوعية.

كذلك فإن المرعى كان ميدانًا للعب والعمل، أما اللعب فكان يصاحبه الغناء دائمًا.

وإذا ما حاولت رصد أنواع اللعب التي كنا نتوارثها عن أطفال المرعى السابقين علينا؛ فإن كتابًا لن يكفي لحصرها وشرحها، ولكنها جميعًا تستعمل جغرافية المكان وأدواته.

«عَزَب» الأعمى

أمـا العمـل فينقسـم إلى نوعـين في المواسـم التـي ليـس بهـا محاصيـل، تكـون عناقيـد «القـرض» قـد بـدأت تنضج متدليـة مـن أغصان السـنط الشـوكية، فتنقسـم إلى مجموعـات، كل ثلاثـة مثـلًا عـلى شـجرة، ولأننـا لا نسـتطيع أن نتسـلق هـذه الأشـجار التـي ينبـت بهـا شـوك «السِّلاع»، وهـو أكـبر وأضخـم مـن الإبـرة، وليـس معنـا مـن الأدوات مـا يسـمح بجـذب هـذه العناقيـد وفصلهـا عـن فروعهـا؛ فكنـا نلجـأ للطـوب نكومـه أكوامًـا، ونظـل لسـاعات نـضرب بـه فـروع الشـجرة، وقبـل المغيـب بسـاعة نبـدأ في جمـع مـا تسـاقط، وقـد «تفشـخُ» إحـدى الطوبـات رأس أحـد منـا، فيسـارع الآخـرون لحشـو الجـرح بطمـي الأرض حتـى يتوقـف النزيـف، ويكـون معنـا جـوال فـارغ أو جـوالان فنملؤهـما بهـذا «الجـرض»، ونتعـاون جميعًـا ونحـن عائـدون -تسـبقنا الغنـمات التـي تعـرف جيِّـدًا طريـق الـدار- في حمـل هـذا الجـوال أو الجوالـين ونذهـب بهـما مبـاشرة إلى عـم «عَـزَب» الأعمـى، الـذي كان يشـتري جهـد اليـوم بمِلّيمـيْن، وقـد لا يعطيهـما لنـا مـالًا، وإنمـا يسـتبدلهما بالعسـلية التـي يبيعهـا والتـي «يعـفّ» عليهـا الذبـاب طـوال اليـوم. أمـا عَـزَب فقـد كان يبيـع «قرضنـا» لتجـار الصناعـة والدباغـة، القادمـين مـن المدينـة؛ إذ إنـه مـادة مهمّـة جدًّا في دباغـة الجلـود وأشـياء أخـرى لم نكـن نعرفهـا ونحـن في مثـل تلـك السـن.

قُفَّةٌ فارغة

أما النوع الثاني من العمل، فكان عقب المحاصيل، وفي أيام الحصاد، وكان هذا الوقت من العام يسهل علينا المهام جدًّا؛ فيكفي أن نترك الأغنام سارحة في بقايا الحصاد، ونتفرغ لجمع سنابل القمح المتبقية خلف الحصّادين، وكانت القرية تزرع في ذلك الوقت القمح والشعير والفول والحلبة والعدس والجلبان -وهو نبات مثل البازلاء له غراء لذيذة الطعم، ولكن كان يستخدم أصلًا علفًا للماشية- والكمّون والكزبرة والشَّمر وحبَّة البركة، وكلها أنواع من «البذار» أو النباتات الطبية، وكان كل طفل في هذا الفصل من العام يخرج بغنماته حاملًا قفَّة فارغة يجمع فيها أعواد تلك النباتات، وكنا أحيانًا نترك الأغنام في المرعى السداح مداح في بقايا الحصاد، لنسير خلف الجمال المحملة بهذه المحاصيل، ولأن حركة الجمل التي تشبه التثاؤب المستمر أو التمطي الدائم والجذر والمد؛ كانت تسمح بتكسير بعض أنواع النباتات التي تحملها؛ فكان يتساقط منها الكثير لنضعه في قُفَفِنَا، وهناك في البيت نعزل كل نوع عن الآخر، وفي نهاية الموسم تتكون لدينا أجراننا الخاصة التي نستطيع أن نبيعها في السوق بنفس السعر

الـذي تُبـاع بـه محاصيـل الأجـران الكبـيرة؛ فأثمـان هـذه المحصـولات ثابتـة، وكانـت تُـكال بـ«الربعـة»؛ أي القـدح، أو «النـص»؛ أي القدحـين، أو «الرفطـاو»؛ أي أربعـة أقـداح، أو الكَيْلـة؛ وهـي ثمانيـة أقـداح، أو المُـدّ؛ وهـو الكَيْلتـان، وكل تلـك الخـبرات تتكـدس لديـك دون أن تـدري، إنمـا هـي داخلـة في تفاصيـل حياتـك اليوميـة، ولا تـدري متـى تعلمتهـا، كذلـك فـإن للكَيْـل غنـاءه أيضًـا، وتسـتطيع أن تسـتمع إلى «هاشـم الكيّـال» في السـوق وهـو يغنـي بـدل أن يعـد الأقـداح؛ واحـد، اثنـان، ثلاثـة؛ وإنمـا يضـع مقابـلًا غنائيًـا لذلـك؛ فيقـول مثـلًا:

«على الله يا وحداني

يا رب لم غيرك تاني

الثالثة خلقتني لم تنساني

الرابعة إنت الدايم وأنا الفاني

ويا ناعسة ادفع خمسة

والساته جاتني بتتولى

كل المراكب بتولي

يا عاشق النبى صلّي»..

ويكون قد عدّ الثمانية «أقداح»؛ أي «الكيلة».

غناء السواقي

كل عمل هناك له ظل في الغناء، أو كل غناء هو ظل للعمل، فمن يحدو تحت الشادوف في غنائه «الهوبلية»، وهو غناء الشواديف، ويعتمد على «الهُب»؛ لثقل القعر الذي يتشكل من كتلة طينية ضخمة تحتاج إلى صرخة في أول الغناء؛ لكي يشدّ الكتلة الطينية، فيغطس الدلو في الماء، ثم تتولى الكتلة الطينية دفع الدلو، فيهدأ الغناء في الشطر الثاني، كأن يقول الرجل صارخًا في الشطر الأول:

«نجعك يا هلال»

وهادئًا في الشطر الثاني:

«كان هنا وشال»

ويقصد بنجع هلال أن الهلاليين مرّوا من هنا ومكثوا فترة ثم رحلوا، ولكن الأهم هي كلمة «شال» التي تشيل فيها الكتلة الطينية الدلو المحمّل بالماء، فينطقها هادئًا؛ لأن غيره شال العبء عنه، كذلك غناء السواقي، فهو غناء لولبي دائري ينتهي مع نهاية الدائرة التي يلفّها الصبيّ أو الرجل خلف بقرة الساقية، كأن يقول:

«مين حطّني طيره

واحوم لفوقي

وانزل على المحبوب

وأبل الشوق»..

ويظـل يحولهـا حتـى يصـل للنقطـة مـن الدائـرة التـي بـدأ مـن عندهـا الغنـاء، ثـم يكمـل:

«مين حطّني طيره

وريشها هندي

وانزل ع المحبوب

واجيبه عندي»..

«ومـين حطّنـي» بمعنـى يـا مـن جعلنـي، ولكنـك تلاحـظ في كل أغنيـات السـواقي محاولـة للطـيران والهـروب والخـروج مـن أسر الدائـرة الرتيبـة التـي يظـل فيهـا الصبـي طـوال النهـار؛ بـل كل هـذه الحيـاة بتفاصيلهـا في الخـارج والداخـل تشـحنك طـوال اليـوم بنصـوص الشـعر وألحـان الحيـاة التـي تعيشـها القريـة؛ فـلا تملـك إلّا أن تجـد نفسـك ترددهـا في بواكـير الطفولـة، وأنـت لا تعلـم متـى حفظتهـا، كذلـك فـإن الأم والجـدة في الـدار لا تكفـان عـن «العَدِيـد»، وهـو فـن المـراثي العـربي الخالـد، وأتـت الكلمـة مـن تَعْديـد مناقـب الميّـت والتحـسّر عليـه، وبقـدر مـا تبتهـج بأغنيـات الخـارج بقـدر مـا تبتئـس وتكتئـب لأغنيـات الـدار، وتبـدأ التفكـير في الموت وأنـت لم تبـدأ الحيـاة بعـد، وقـد كان بيـت جـدي قنديـل -بعـد رحيلـه بالـذات- مرتعًـا لمثـل هـذه المـراثي؛ فالمرأتـان تعـدّدان وهـما تكنسـان

تـراب الـدار بـ«الجرباحـة»؛ وهــي سـباطة النخـل بعـد أن يـزول عنهـا بلحهـا، فتتحـول إلى مقشـة، وتعـدّدان وهـما تنقيـان البـذور مـن حبـات الطـين قبـل طحنهـا، أو وهـما تطحنانهـا بالرحـى، أو.. أو.. إلـخ. لـذا فعـلى البنـت الصعيديـة أن تـترك لنـا أغنيـات العمـل لنحفظهـا؛ فهـي لـن تـدور خلـف سـاقية، ولـن تشـد شـادوفًا، ولـن تركـب كـرسي نـورج، ولـن تمـشي خلـف محـراث، وتتفـرغ لتعلـم فـن النسـاء الـذي ينقسـم إلى قسـمين:

شـعر المـراثي، وشـعر المناسـبات الفرحـة، ولـو أنـه غنـاء حزيـن أيضًـا يرتـدي نفـس ألحـان المـراثي، ففـي نصـوص «الحِنَّـة» سـوف تسـتيقظ اللغـة لتصبـح عربيـة خالصـة أو فصحـى خالصـة، ولكنهـا تسـتعمل نفـس أوزان المـراثي الشـعرية، فتغنـي المـرأة في ليلـة «الحِنَّـة» تصـف العـروس وكأنهـا تسـتهل قصيـدة جاهليـة:

«شبهت رقبتها بنخلة في الصعيد

إذا هبهبت لرياح بيزينها الجريد

شبهت رقبتها بنخلة في العُقب

إذا هبهبت لرياح بيزينها الرطب»..

فهــي تشـبّه شَـعْرَ الفتــاة بجريــد النخــل في الريــاح، وفى الثانيــة تشـبّه صدرهـا بثـمار النخـل: الرطـب. وقـد يـأتي الشـعراء الشـعبيون إلى أجـران الغـلال في الصيـف، فيغنـون أقاصيصهـم وملاحمهـم نظـير قـدح مـن الغـلال، ونسـتمع نحـن مجّانًـا، ناهيـك عـن اللعـب الليـلي، وكلـه تصاحبـه الأغنيـات.

إذن فحـين تصبـح في الخامسـة مـن العمـر في هـذه القريـة؛ تكـون قـد حُمِّلـتَ بمئـات النصـوص الشـعرية لـزوم الحيـاة، وبالطبـع فقـد كنـت مثلهـم لا أتخيـل أننـي سـأغادر هـذه القريـة يومًـا، فـكان عـليّ أن أتعلـم أغنياتنـا التـي سـوف تصاحبنـا في الشـباب والكهولـة.

يبـدو أن حيـاة الوالـد في المدينـة -قنـا- كانـت تتبلـور أكـثر فأكـثر كي يصبـح رجـل المدينـة.

وأذكـر حـين مـات عمـي عـلي قيـل لي إن أبـاك قـادم للتعزيـة، ولم أتمكـن مـن رؤيتـه، ولم أكـن قـد رأيتـه حتـى الآن، وكان ينـزل القريـة في المناسـبات الكبـيرة، فيعطـل أهلـه أعمالهـم ليتفرغوا لاسـتقباله.

فى هـذا الوقـت لم أكـن أهتـم بـأن أراه؛ فلقـد تربيـت بـين أحضـان جـدتي ووالـدتي، وكان حزنهـما الخـاص يغلِّلنـي بغلالـة تحمـل الرفـض لذلـك الرجل الـذي أورثهـما حزنهـما الدائـم؛ الـذي تقاومانـه بالغنـاء وحديـث المسـاء.

نمنمة

ذهبت إلى مدرسة القرية فترة وجيزة جدًّا، ويبدو أنه كان نهاية عام دراسي، وكان الرجل في فترة الغداء يأتي بخبز وجبن في قفصين متقابلين على ظهر حمار صغير.

وكانت المدرسة تقع تحت النادي الذي بناه الشيخ محمد أبو طالب، لكني أذكر أيضًا شهر رمضان وانتظارنا لأذان المغرب، حيث كنا نجلس في فناء هذا النادي نبيع ونشتري اللعب التي يصنعها بعضنا، وكانت العملة هي «نقى البلح» -النواة- ولم يكن هناك راديو أو تليفزيون، وكان المسجد المجاور بلا مئذنة، وصوت عم رفاعي المؤذن كان ضعيفًا لا يُسمع من على بعد عشرة أمتار؛ فما بالك بقرية بأكملها، فكان حين يؤذن ننطلق في دروب القرية بادئين بالأطراف، ثم مخترقين للعمق، نشدو وبصوت مرتفع: «افطر يا صايم ع الكعك العايم»، ولم يكن هناك كعك ولم يكن هناك سمن كي يعوم هذا الكعك!

وأذكر واقعة فريدة لعم الشيخ رفاعي؛ فقد كان هذا الرجل خوّافًا بصورة لم يسبقه إليها أحد، وكان يخشى الكلاب والعفاريت!

وبالفعل كانت الكلاب تسكت عن كل الرجال لتطارده هو شخصيًّا،

ولخوفه من العفاريت كان يكتفي بأذان الظهر والعصر والمغرب إن تجاسر، وعلى القرية أن تحل مشكلتها في موضوع أذان العشاء والفجر.

وكنا ندفع له أجره غلالًا؛ فلم تكن لدينا أموال، وقررت القرية يومًا أن تدفع له نصف ما تعطيه، نصف ما هو مقرر له، على أساس أنه يؤذن نصف المدة، وكان يومًا.

وقد كنت أراه دائمًا يدخل بيت جدتي ست أبوها، يجلس خلف الباب ينمنم، فتقول جدتي إن الرجل لا يقرأ قرآنًا، وإنما يخدعنا بنمنمة، وكانت تشك في أنه يحفظ القرآن أصلًا، لولا أنني فوجئت في العام الماضي (١٩٩٦) حين زرت القرية وبعد أن توفي الشيخ رفاعي بزمن طويل بابنه إماما للمسجد وشيخًا وقورًا، وهذا يعني أنه حفظ القرآن، وأن أباه كان يحفظه، ودفعه إلى أن يحتل نفس الوظيفة التي فقدها بموته.

الهروب

هكذا سارت الحياة في أبنود قبل أن يقرر الشيخ أن يعود بالأسرة من القرية إلى المدينة.

ولم تذهب أمي معنا، واحتفظت بفاطمة -الابنة الوحيدة- معها في القرية، وكنا نحن في ذلك الوقت ستة أولاد، كان أكبرنا الشيخ جلال، الطالب الأزهري، دائم الهروب إلى السويس، يخلع العمامة والجبة، ويذهب ليجر عربة خضار في «المبيع»، يبيع البطيخ والكرنب لـ«الجريك» والإنجليز وأهالي المدينة، كما يفعل كل أبناء قريته المهاجرون، وكانت رغبته في ذلك لا تقاوَم، يعودون به إلى المعهد الديني، فينتظر فترة ثم يختطف أي شيء ليبيعه ويدبّر ثمن التذكرة ليعاود فعلته، ومن عجيب الأمر أنه كان ينجح بتفوق، وأصبح فيما بعد شاعرًا كأبيه، وإن كان قد سجن نفسه في قوالب الشعر القديمة التي تعلّمها في المعهد الديني وفي كلية اللغة العربية فيما بعد.

الأخ الراعي

تـولى عبدالرحيـم -الأخ الثـاني بعـد الشـيخ جـلال- تدبـير أمورنـا، وكان فتـى رحيـمًا رقيقًـا، حلـو التقاطيـع، مهيّـأً لأن يـدرس الطـب، ولكـن المـوت اختطفـه فجـأة، وكان هـو الـذي رعانـا في غيـاب الأم، وكان أمًّـا حقيقيـة، يـشرف عـلى طعامنـا وأمورنـا اليوميـة، برقـة النسـاء وشـهامة الكرمـاء.

وكان هنـاك عبدالفتـاح، الأكـبر منـي بعامـين، وكنـا نشـكل خليـة مـن «الزنابـير» -الدبابـير- في ذلـك المنـزل الـذي اكـتراه لنـا الشـيخ الأبنـودي الـذي كنـا نـراه قليـلًا أيضًـا.

متميز

لا أدري متى جاءت الأم، لكني أذكر أنه فور مجيئها انتقلنا إلى بيت آخر في حي الأشراف؛ بيت كبير مكون من ثلاثة أدوار ببلكونات ومشربيات، وكان بيتًا ضخمًا، قضينا فيه معظم سنوات الطفولة، ولبست الطربوش لأول مرة لأذهب إلى المدرسة الابتدائية، قبل أن يُلغى لبس الطربوش. ثم انتقلت إلى مدرسة سيدي عبدالرحيم الابتدائية، وبدأت مواهبي في اللغة العربية تتضح منذ الثانية الابتدائية: خطيب المدرسة المفوّه. وكانت لي نشاطات مسرحية، من عجيب الأمر أني كنت أقرأ كتاب المطالعة فأحفظه وأذهب إلى المدرسة من دونه!، وكان المدرس حين ينتهي من قراءة الدرس يسألني أن أقرأه فكنت أقرؤه من الذاكرة. وقد تلقّيت -أو قد نلت- بعض الجوائز[1] نظير تلك النشاطات، وهي جوائز زهيدة القيمة، ولكنها كانت تعني بالنسبة لي أني مختلف أو متميز عن الجميع في اللغة العربية على الأقل. وخلال كل سنوات الابتدائية لم يختلف برنامجي الصيفي في الذهاب إلى أبنود والعمل في الحصاد، وجني القطن وتدبير بعض المال، وحفظ الأغنيات و.. و..

١ يحكي الأبنودي عن جائزتين، إحداهما مضحكة:
وأنا في الصف الثاني الابتدائي «رزعت» خطبة بمناسبة عيد العلم، وأعطوني جائزة: حمّالة بنطلون بلاستيك، وكنّا أيامها بنلبس البنطلون الشورت، وحتى الآن أمارس الرعب من النظر إلى ركبتي، ولم تتحمّل أكثر من يومين وتقطّعت من كل جانب ورميتها. أمّا الهدية الثانية فكانت للمتفوّقين في المرحلة الثانوية، وهي كتاب »آثار الحرية« للرفيق كرافيتشينكو، وزُعته علينا المخابرات المركزية الأمريكية، فكانوا يمرُّون علينا ليفسدوا رؤوس الطلبة وينفّروهم من الاتحاد السوفييتي، ويجعلوهم يكرهونهم، ولقد قرأت الكتاب ووقف شعر رأسي وظل هاجسي يطاردني أن أعرف كل ما حدث حتي اضطررت إلى قراءة كل التاريخ الروسي، وأفادني الكتاب بصورة عكسية، وقرأت لـ «تولستوي»، «ديستوفيسكي»، «تروجيف»، و«جوركي»، وكان الفضل في عشقي لهم هو البحث عن مصداقية لكتاب المخابرات المركزية، وهكذا أنقذت نفسي على عكس الكثير من الطلبة.
مجلة الإذاعة والتليفزيون- عفاف علي ١٧ يوليو ٢٠١٠.

اكتشاف الشعر

وهكـذا انتقلـت إلى المدرسـة الثانويـة لأجـاور الشـاعر الراحـل أمـل دنقـل، وقـد كنـا أصدقـاء مـن قبـل؛ لأنـه مـن قريـة القلعـة التابعـة لقريـة قفـط: القريـة التاليـة لقريتـي جنوبًـا، وفي المدرسـة الثانويـة بدأنـا نتآلـف في شـكل مجموعـة تضمنـي وأمـل دنقـل وأبـو الوفـا القـاضي، وقـد كان شـاعر عاميـة صمـت فجـأة، ولكنـه كان رئيـس فريـق التمثيـل في قنـا الثانويـة، حيـث قدمنـا مسرحيـات مهمـة كـ «أوديـب» وغيرهـا.

ثـم حدثـت فجـأة حـرب ١٩٥٦ واندفعنـا جميعًـا للانخـراط في سـلك المقاومـة الشـعبية وغيرهـا، وتدربنـا عـلى السـلاح، ولكنهـم لم يعطونـا الفرصـة كـما كنـا نأمـل للذهـاب إلى الجبهـة؛ فاضطررنـا إلى كتابـة الشـعر.

وتعتـبر معركـة ٥٦ هـي البدايـة، أو هـي المحـرك الأسـاسي لأمـل دنقـل، ولي، للاتجـاه نحـو اكتشـاف الشـعر.

ومـن الأغنيـات التـي كتبهـا في ذلـك الوقـت صـلاح جاهـين وعبداللـه شـمس الديـن، بـدأتُ ألتفـت بـأذني نحـو أغنيـة الراديـو، ولم يكـن في بيـت الشـيخ راديـو، ولم يسـمح بذلـك إلّا بعـد ذلـك بفـترة طويلـة حـين عينـت في محكمـة قنـا موظفًـا واشـتريت راديـو بالتقسـيط.

وسرعـان مـا انتهـت الحـرب لتنطـوي هـذه الأغنيـات وتتـوارى، لتخـرج علينـا الأغنيـات العاطفيـة مـرة أخـرى.

وكنـت قـد التفـتُّ فعـلًا للأغنيـة «الرسـميّة»، وبـدأت أعقـد المقارنـات -دون قصـد- بينهـا وبـين أغنيـات أبنـود، وأحلـم بمسـاحة في هـذا الراديـو لتلـك الأغنيـات الأصيلـة والحقيقيـة التـي تعـبّر عـن حيـاة النـاس.

«حنّا» علمني منهجي

كنا نقيم حفلًا في عيد الأم، وكنت قد أحببت أن «أسرق الجمهور» من بقية الشعراء، وقام أمل دنقل ليلقي قصيدة عن أمه مصر، ومصطفى الضمراني ليلقي قصيدة من نوع «أقبل الصبح وغرّد الطير»، وكل تلك القصائد التي تبدأ بهذه الصيغ المحفوظة.

وأطللت على الناس بقصيدة من الشعر الحلمنتيشي، التي أغرقت الجمهور في الضحك في هذه المناسبة الوقورة[1]!

وبعد انتهاء الحفل صحبني مدرس اللغة الفرنسية، وهو الأستاذ توفيق حنّا، الناقد المعروف وعاشق القرية، إلى القنطرة التي تعبر الترعة التي تحفر حديثا أمام مسجد سيدي عبدالرحيم القنائي ليريني شقاء العمال وغُلبهم من أجل الحصول على لقمة خبز،

(١)- أما تفاصيل هذه الصورة التى يرسمها الأبنودى ولا تفارق خياله لطرافتها - وهو طالب فى المرحلة الثانوية: كان عيد الأم شيئا جديدا، وكنا نحاول أن نكتب شعرا أنا وأمل دنقل ومصطفى الضمرانى، وقيدنا أسماءنا، وكان حفلا رهيبا فى فناء مدرسة قنا الثانوية، ومساحته كانت شاسعة، ووقف مصطفى الضمرانى وألقى قصيدة عن الأم من نوع: «غرد الطير وأقبل الصبح»، وصفق له الناس، ثم وقف أمل دنقل ونحن فى باكورة الشباب والشعر أيضا، وأنشد قصيدة عن الأم التى هى «مصر»، بتعاليه المعروف وثقته الكبيرة فيما يقول، وصفق له الناس أيضا، ثم وقفت وكل الناس يعرفون أننى ابن الشيخ الأبنودى، فإذا بى مهشما اللغة، أقول قصيدة حلمنتيشية تقول: «أهدى إليك تحية بنشاطا، يا من بها فرح الفؤاد وظاطا، أعلنت حربك على الطبيخ هزمته وغدا الحديد بساعديك بطاطا، مزقت ثوب الخبز حتى لم يعد يقوى على إصلاحه خياطا»، لاحظ - فإذا بالجماهير تسقط من على الكراسي، والمناسبة تتحول إلى شيء عجيب، ثم جاء بعدنا أساتذة اللغة العربية ليتكلموا، وإذا بالجماهير تنفجر من الضحك، حيث أننى أفسدت أول حفلة عيد أم تقام فى مدرسة قنا الثانوية» - الإذاعة - عفاف على - السابق.

وكيـف أني أضيـع موهبـة كتلـك في الهـذر والـكلام الفـارغ، وإذ بـه يفاجـأ بـأني ناديـت عليهـم بالاسـم، واحتضنـوني بطينهـم، وتعجـب أن قلـت لـه إن معظمهـم بلدياتي، بـل إن فيهـم مـن يمـت لي بصلـة قرابـة.. فتأثـر تأثـرًا شـديدًا وقـال لي: هـؤلاء هـم مـن يجـب أن تحملهـم في شـعرك وتدافـع عنهـم، فأنـت شـاعر موهـوب وتسـتطيع أن تلعـب دورًا مهـمًّافي حيـاة هـؤلاء.

كان الرجـل يسـكن في لوكانـدة «الجبـلاوي» في منتصـف المدينـة، وبـين مشـوارَيْ الذهـاب والعـودة، علمنـي مـا أصبـح فيـما بعـد منهجًـا أدبيًّـا صرت عليـه في معظـم مسـيرتي الشـعرية.

ميلاد جيلي

كانـت حـرب ١٩٥٦ بمثابـة فـترة التحـول الكبـيرة في معظـم أبنـاء جيـلي، فمنـذ خطـب عبدالنـاصر مؤمّـمًا القنـال، ومنـذ أعلنـت فرنسـا وإنجلـترا وإسرائيـل الحـرب عـلى مـصر، وحتـى الإنـذار الـروسي، كان هــذا بمثابــة دخـول مـصر في عـصر سـياسي ووطنـي جديـد، وأيقظتنـا خطبـة عبدالنـاصر في الأزهـر: سـنحارب.. سـنحارب.

وأعتـبر أن هـذا هـو بدايـة عـصر الثـورة وليـس عـام ٥٢، وهرولنـا نبحـث في كتـب تاريـخ مـصر، ونفتـش عـن الإجابـات لـكل الأسـئلة التـي أيقظتنـا عليهـا هـذا العـدوان المباغـت.

ويعتـبر هـذا العـام -١٩٥٦- ميـلادًا حقيقيًـا لجيـلي بأكملـه؛ فلقـد لجـأ الشـباب إلى الفرشـاة والقلـم، يكتبـون الخطـب الناريـة، والأشـعار المبـاشرة، واللوحـات التـي تعـبّر عـن المقاومـة في بـور سـعيد.

وامتـلأت مـدن مـصر بهـذه اللوحـات وحفـظ الناس كل أغـاني تلـك المرحلة، وبالـذات أغنيـات صـلاح جاهـين، ثـم بعـد ذلـك وحـين أصـدر «مـوّال عشـان القنـال» كانـت النـاس قـد حفظـت كل هـذه الأغنيـات مـن خـلال الراديو.

بداية الطريق

وقد بدأت علاقتنا بالكتاب اللامدرسي، ربما لأول مرة، فسارعنا لقراءة كل ما استطعنا أن نحصل عليه من كتب، وكنا نسلمها أحدنا للآخر، وكأننا وضعنا أقدامنا على بداية الطريق الذي يؤدي إلى أن تصبح أديبًا.

مقالان للأبنودي لم ينشرا.

على الإعلام أن يغلق بوتيكاته الخاصة

رسالة إلى قلبي المتعب من قلب مصر قلب الأمة العربية «جيش مصر»

- هـذا مقـال أمـلاه عـليّ عبدالرحمـن الأبنـودي خـلال فـترة مرضـه التـي قضاهـا في مستشـفى «قـصر العينـي» ١٩٩٩، ينتقـد فيـه الإعـلام المـصري في ذروة سـيطرته في عهـد الوزيـر صفـوت الشريـف، ولم يُنـشر هـذا المقـال في حينـه، إضافـة إلى مقـال آخـر يحمـل تقديـره للقـوات المسـلحة.

يقول في مقاله الأول:

«أهـل الإعـلام، مازالـوا مصنّفـين عـلى الطريقـة السـتيناتيّة بـين أهـل يسـار وأهـل يمـين، ورجـال المخابـرات القدامـى مازالـوا يحملـون تحـت آباطهـم التقاريـر، يشـيرون إليهـم بأصابـع الاتهـام، فينُفـى أهـم القادريـن عـلى العطـاء مـن شاشـات الإعـلام، حتـى اضمحلـت هـذه الإمكانيـة الضخمـة وتُركـت سـلعةً في أيـدي بعـض النسـوة الـلاتي هـن أنمـوذج رائـع للقـدوة والأسـوة، يتحكمـن في وعـي الأمـة المصريـة العظيمـة التـي فتحـت أبـواب المعرفـة والنـور قديمًـا للدنيـا بأسرهـا، مـن هنـا الفسـاد، ومـن هنـا أصابـع حـراس البـلاد! وهنـاك مـن يأكلهـا «والعـة». وبـين كل هـؤلاء أصبحـت حقـوق الأمـة ضائعـة، ومـازال الإعلام الرسـمي يحـاول ألّا نصبـح جيشًـا إعلاميًـا حقيقيًـا ندعـو لمـصر العربيـة كي نسـتعيد مكانتهـا التاريخيـة القديمـة. فكـرة العروبـة التـي عـلى مـا يبـدو نسـيها الإعـلام المـصري تمامًـا.

وعـلى الإعـلام أن يغلـق بوتيكاتـه الخاصـة، أو يـزاوج بـين المصالـح الخاصـة وأهـداف مـصر القوميـة، التـي يبـدو أنهـا انسـحبت تمامًـا مـن دوائـر الضـوء الإعلاميـة الرسـمية، ولم تعـد تتحلـق حولهـا، أو تلقـي الضـوء عليهـا سـوى بعـض الأقـلام القليلـة مـن مفكريـن مهمـين مهتمـين بهمـوم هـذا البلـد الـذي يعبـث بـه إعلامهـم عبثًـا كبـيراً.

إن الإعـلام العـربي يدفـع لنـا مبالـغ كبـيرة «نسـتحقها»، ويقيّـم أداءنـا بصـورة تفيـض احترامًـا وتقديـرًا، وينقلنـا عـلى حسـابه في درجـات الطائـرات الأولى لنقيـم في أوتيـلات الدرجـة الأولى أيضًـا، وينعمنـا ويدلّلنـا

مـن أجـل أن نرتبـط بـه؛ فـماذا يفعـل إعلامنـا المـصري في مثـل هـذه الأمـور؟ الـذي يحـس بالانتصـار كلـما سـلبَنَا حقوقَنـا، وسـلب العـرب - والمقربـين بالـذات- ليـس أجورهـم فقـط؛ بـل مـا جـاءت بـه جيوبهـم تحـت دعـوى أن مـصر تعطيهـم الغطـاء الإعلامـي والدعـائي، دون أن نعـرف هـل تقبـض الخزانـة المصريـة هـذه الأمـوال أم أنهـا تذهـب إلى جيـب عبدالرحمـن الأبنـودي مثـلا؟! إعلامنـا هـذا الـذي يحشـو قنواتـه التـي لا ضفـاف لهـا ولا منبـع لهـا ولا مصـب، والتـي لا طعـم لمائهـا ولا وظيفـة سـوى إفسـاد تربـة الشـعب المـصري الفكريـة؛ بـل والانتقـال بالفسـاد إلى حقـول الأمـة العربيـة، التـي مازالـت تنظـر إلى مـصر عـلى أنهـا الرائـدة حتـى في الفسـاد، وكأننـا سـوف نصـدّق مـا يبثـه لنـا أصحاب المصالـح حـول إنجازاتهـم العبقريـة، التـي تلجـم كل مـن يتطـاول عـلى ولـوج القـرن الواحـد والعشريـن الـذي سـوف نكـون ملوكـه بمـا أن أهـل الهيمنـة سـيظلون في مواقعهـم طـوال القـرن الواحـد والعشريـن والثـاني والعشريـن والثلاثـين!

إن السـلطة مـرض يسـتشري ولا يـرى المتسـلط لتسـلطه مـن نهايـة؛ وإنمـا يصبـح الفسـاد هـو الدخـان الـذي يعمـي العيـون ويشـتت الـرؤى، «ويدلـدل رجليـه» بينـما مـن كان قويًـا يتراجـع مسـترًا بتصريحاتـه وإنجازاتـه التـي لا تخـص غـيره لـكي يصبـح الضعيـف قويًـا، والقـوي ضعيفًـا، والمسـألة لا تتعلـق بحجـم البـلاد ولكـن بعمـق أبعـاد الفسـاد.

إن سياسـة إخفـاء الحقائـق تجعلنـا غـير قادريـن؛ بـل ومكبلـين عـن الـرد عـلى هـؤلاء الذيـن يتطاولـون عـلى مـصر قيـادة أو شـعبًا، ثـم

إن هنـاك أبـو «العُرّيـف»، وأم «العُرّيـف»، مادامـت الأمـور سـالكة في المحيـط الشـخصي، فلتسـقط مـصر وليسـقط معهـا فكرهـا وإعلامهـا وحتـى رجولتهـا لنصبـح بوتيـكًا أو كباريهـا وسـط نـيران الأتـون الـذي يلتهـم العـالم العـربي».

رسالة لقلبي المتعب من قلب مصر النابض

وهـذا مقـال آخـر، ولكـن كتبـه الأبنـودي بخـط يـده وأودعـه إيَّـاي حـين أعطـاني كراسـة بهـا بعـض رسـومات لـه، مـن إهـداء منـى عبدالعظيـم وجـورج البهجـوري، وبعـض كتابـات أخـرى غـير مكتملـة كقولـه:

«من شكل وفيه عمك اللي داس

على الميراث

تقويسة الغل في ضهر الديب

ويبتسم وكأنه أحبّ حبيب».

وكتب الأبنودي أيضًا:

«يحك ضميره في الحيوط والجماد

يُنْفُضْ عن الجلد الحقير القُراد

ونص ذل

ونص»

وأعاد كتابة هذه السطور مرة أخرى بقوله:

«يحك ضميره في الحيطان

ويبتسم بعيون لئيمة.. الكره والسخرية.

صفرا ترش»

أما مقال الأبنودي فكان تحية للجيش الذي طالما بادله حبًّا بحب وتقديرًا بتقدير، وجعل له عنوان «أزهار من صلصال!» جاء فيه:

«هي مطبوعة اللافتة الصغيرة أيضًا (نتمنى لسيادتك عاجل الشفاء) لكنها جاءت إليّ تسعى من مكان عزيز؛ من أسرة إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة، تحمل إمضاء دكتور لواء أركان حرب سمير فرج مدير إدارة الشئون المعنوية؛ أي أنها كانت رسالة لقلبي المتعب من قلب مصر النابض، بل من قلب الأمة العربية كلها (جيش مصر).

هذه السلة -وتوابعها- لا تحس أن جمالها وتناسقها جاء عفو الخاطر؛ وإنما تتأكد أن ثمة عينًا فاحصة وذوقًا عاليًا تحكّما في الانتقاء؛ إذ تحمل زهورًا من التي تجف وتظل في بيتك لعام أو أكثر تؤدي رسالتها الجمالية، وتدعوك للحفاظ الدائم على الفازة الفنية التي غُرست فيها هذه الفروع الميدانية ذات الزهور، التي تتخذ شكل رؤوس الحيوان: الزراف والفرس، والطيريّة؛ كاليمامة والهدهد، وهي زهور طبيعية أنبتها النبات فلا هي من صلصال ولا جص.

هذا هو د. سمير فرج و (د) هذه من عندي؛ فقد نال درجة الدكتوراة هذا العام، وفي زحمة احتفالات مصر باليوبيل الفضي لأكتوبر لم نجد الوقت لتوجيه التحية وآيات المباركة له، هذا الرجل العسكري الصارم كالسيف، الرقيق كحد الوردة.

مع السّلّة أرسل علبة حلوى، لولا دخول شهر رمضان المعظّم لنفدت في دقائق، ومازالت تسترني وأقدم منها لأصدقاء وزائري ما بعد الإفطار.

أحمل له -ومازلت- محبته وتشجيعه لي في حفل تحرير سيناء

والـذي أقمنـاه -الفنانـة العظيمـة ماجـدة الرومـى وأنـا- أمـام السـيد رئيـس الجمهوريـة وقرينتـه عـلى مـسرح الجـلاء، وحقـق نجاحًـا ملحوظًـا، ولقـد ظـل يلاحقنـي تليفونيًّـا يشـجعني عـلى كتابـة القصيـدة حتـى تمّـت كتابتهـا وأديتهـا عـلى خـير وجـه وحققـتْ المرجـو منهـا».

حكمة الأبنودي[1]

- لم أعد ألومني حين أضبطني متلبسًا بالحقد على أبي؛ بل وعلى آباء معظم أبناء جيلي، هؤلاء الطيبون القادمون من زمن يختلف لونًا وطعمًا ورائحة!!

- كان والدي الشيخ منضبطًا كالسّكر المعتدل، منفلتا من السّكر «المتكرر»، يحاول أن يجعل من يومه صورة مطابقة لأمسه، وأي اختلاف بينهما يدخل من وجهة نظره في «دائرة الشذوذ»، كفانا الله شرَّها. ألّف «الألفيّة» في النحو، و«البُردة» في مدح الرسول، متتبعًا خطى أجداده ليطابق بين صورتي الخَلَف والسلف، حفظ وردد نفس الأدعية توسّلًا وتيمّنًا. أمَّ الناس في الصلاة في صورة لا تختلف من قريب أو بعيد عن شيخ ربما يحمل نفس الاسم، كان يصلّي في نفس المكان ويبتهل بنفس الصوت من قرن مضى أو عشرة! تركّز كل اجتهاده في سعيه إلى اكتساب ما يجعل منه في النهاية النسخة المعتادة بأمانة من صورة أنموذج تناسلت منه ملايين النسخ المتشابهة! كان معلّمًا يدرس العربية، وكان يضرب بالحذاء -أحيانًا- من يهمل تجويد خطه، كان

١- هذه هي خلاصة آراء وأفكار الأبنودي خلال مسيرة حياته.

لا يؤمـن بقداسـة اللغـة العربيـة فحسـب؛ بـل وباحـترام وتبجيـل وتوقـير خطّها العـربي والركـوع في محرابـه بصفتـه الطريـق الممهـد الـذي يقـود إلى الجنـة؛ فقـد كتـب بـه القـرآن الكريـم!! كان يعتـبر الخـروج عـن قواعـد الخـط وقوانينـه -بأنواعـه المختلفـة- شـذوذًا! كان الوالـد مأذونًـا ويحـرص عـلى ترديـد نفـس النـص في كل زيجـة، ونفـس النـص في كل طـلاق، لا يزيـد ولا ينقـص حرفًـا، ويعتـبر أيـة مخالفـة حتـى لطبقـات الصـوت -أثنـاء قراءة بيانـات الاتصـال والانفصـال- شـذوذًا! لم يفكـر -ولـو لمـرة واحـدة- في تغيـير لفّـة العمامـة أو تفصيلـة الجبـة والقفطـان، كان لا يغـير أصدقـاءه؛ بـل كان يؤمـن بـأن اللـه خلقهـم ليكونـوا أصدقـاء، وزرعهـم مـن حولـه وثبّتهـم في الأرض يراقـب كل منهـم رحيـل الآخـر بجنـان ثابـت، وإيمـان قـوي بـأن الخالـق يسـترد ودائعـه وديعـة تلـو الأخـرى، وأن محاولـة التفكـير في تحـاشي دورك في الطابـور أو إعـادة الترتيـب، مجـرد التفكـير في ذلـك أو الـتردد في اقتحـام العتبـة الفاصلـة بـين المـوت والحيـاة هـو بالتأكيـد نـوع مـن الشـذوذ! قوانـين ثابتـة محكمـة نبتـت مـن حولنـا كجـدران السـجون، مجـرد محاولـة تسـلقها أو مغادرتهـا شـذوذ، إنهـا نفـس الجـدران ذاتهـا التـي سـوف نورثهـا لأبنائنـا مـن بعدنـا، السـجن الخالـد المبـارك، نهبُـه لهـم، ونعلمهـم وسـائل التـواؤم داخلـه، ونحذرهـم مـن أن يحسـوا بعـدم الرضـا والسـعادة والاكتفـاء أو الرغبـة في الحريـة؛ بـل علينـا أن نقنعهـم جيّـدًا بـأن الخـروج مـن هـذا السـجن الآمـن، شيء غريـب وشـاذ!

- هـذا مـا فعلـه والـدي بي، ومـا فعلـه آبـاء أصدقـائي وأبنـاء جيـلي، كان شـعارهم الأكـثر ارتفاعًـا وأوضـح كتابـة هـو: «الخـروج عـن المألـوف -أيـا

كان- شـذوذ»! لكننـا -ومنـذ وقـت مبكـر- بدأنـا نـرى أيامهـا مـن يثـور عـلى هـذه القوانـين في سريـة تامـة.

- لا غمـوض في علاقـات الحـب البسـيطة العميقـة، وزاد الذكريـات القديمـة والحديثـة: الزوجـة، الأبنـاء، الأب، الطفولـة والأيـام الخـضراء، الـدوران خلـف السـاقية، النـزول إلى قـاع بـئر، صعـود نخلـة تتحـدى، سـباحة في نهـر، صيـد سـمكة مـن المـاء الطامـي.

- لا غمـوض في علاقـات الحـب المركّبـة أيضًـا: الرفـاق، السـجن، تأمّـل الزحـام البـشري، التمـرد، الغضـب للآخريـن، الرغبـة في ملامسـة الأحـلام البعيـدة واخـتراق الحقائـق المسـتحيلة، كتابـات لأديـب لم يدلّـك عليـه أحـد، تقليـب حـوادث التاريـخ، كـره الخيانـة واحتقـار الخونـة.

- هل هناك غموض في الإحساس بكل ذلك.

- المشكلة أن الأعمار محدودة، ولا يستطيع تحقيق الحلم إلّا من حلم به.

- أكـثر الفنانـين إحساسًـا بالظلـم في بلادنـا هـم الرسـامون والنحاتـون والمثّالـون، مـع أنهـم الأبنـاء الشرعيـون لأجدادنـا الفراعنـة، الذيـن علّمـوا الكـون كيـف ينشـق الحجـر ليصعـد منـه الإنسـان.

- مصر الرائعة الشهيدة التي لم يكتب أحد -بعد- تاريخها المعاصر.

- تتطايـر تواريخنـا في الريـح ورقـة بعـد ورقـة، وتنهـار آثارنـا -التـي تـدل علينـا- أثـرًا في أعقـاب أثـر، تفقـد وجوهنـا تضاريسـها ملمحًـا بعـد ملمـح، عصـارة أيـام العشـق، دلائـل الأعـمار الفنيـة، روائـح أيـدي الأجـداد المضمّخـة بالمسـك، مـع كل فقـد يُقطـع لنـا جـذر؛ لتصبـح العلاقـة بيننـا وبـين حقيقتنـا كعلاقـة الحـذاء العـصري بـالأرض الأصيلـة.

- حين دُقّت طبول النصر وارتفع صوت الأفراح، وأشعلت القناديل لم ندفع ثمن الزيت، لم نتذكر دماء من غمسنا في دمائهم فتائل العُرس المضيء، أطلقنا عليهم تلك التسمية الانتهازية مكشوفة التضاريس: الشهداء، ومضينا لأحوالنا، لم نلتفت إلى أبنائهم أو أزواجهم أو آبائهم، لم نرد الصنيع بصنيع.

- هكذا ابتلعت مصر اليحموم بردًا وسلامًا وانصرفت إلى توزيع تركة الدماء، وانتقلت فكرة الوطن الواحد ليصبح لكل منا وطنه.

- يوضع الفاسدون في أهم المواقع وكأنهم اختيروا بعناية ليخرجوا أحشاء مصر، سرقوا وحكموا وبُرّئوا أو وقعت عليهم أحكام صغيرة، وها هم يمشون كالطواويس تيهًا، ترفعهم على أكتافها الثروات التي نُهبت والمكاسب التي ما كانت لتتاح لهم لو لم يخرجوا على المألوف.

- أريد أن أستدين من بنوك الدولة -حبيبتي- مبلغًا صغيراً من المال، فقط عدة ملايين دون ضمان مثل الكثيرين؛ ذلك لأنني قررت أن أضرب المبلغ في جيبي وأغادر هذا البلد مثل من غادروا، ولابد أن تتحقق هذه المغادرة بأقل مغامرة.

- نهاجم الفساد كثيراً دون أن نتوصل إلى توصيف حقيقي للفساد، أو تعريف محدد يجعلنا -والدولة- نتكلم لغة واحدة، ويفهم أحدنا الآخر حين نتحدث عن الفساد!!

- المسافة بين القول والفعل، الادّعاء والحقيقة، هو ما نطلق عليه «فساد».

- الفساد حقيقة أخلاقية واجتماعية وسياسية وإدارية؛ بل وأحيانا تتخذ صورًا دينية، الخروج من كل قوالب المكتوب على الأوراق للدائر

على أرض الحقيقة يشكل فسادًا، لا أظن أن ثمة أملًا أو سبيلًا لإيقافه مهما خلصت النوايا ومهما نظفت يد الدولة، إذ إن هناك دولة فوق ودولة تحت!!

- في هذا العصر الفاسد لا تصبح الحكوماتُ حكوماتٍ بغير فساد.

- راحت رجال العز والهيبة، وجات رجال لا تستحي العيبة «بكائية صعيدية».

- إننا نستورد الآن من الرغيف إلى عجينة الطعمية، وهذا لا يليق بشعب قامت شهرة استمرار حياته على اعتماده على الفول والطعمية منهجًا ورؤية وهدفًا!

- لقد تمكّن منّا الكذب حتى ليستحيل علينا نزعه إلّا بطينة القلب وتمزيق الأغشية وتمزيع الأوردة وتسييل الدماء.

- من الذي سلّحَنا بثقافة القذارة ليجعل منها أكثر خصالنا أصالة.

- تمامًا كما انفتح «خرم» الأوزون واتسع في سنيننا هذه، حدث «خرم» كبير في الستينيات (من القرن الـ٢٠) اسمه «خرم الأحلام».

- ويا لها من فترة تلك الستينات، كانت مؤخراتنا مكشوفة -لا شك- انكشافًا جماعيًّا؛ لأننا -وفى ليلة واحدة تقريبًا، وفى كل أنحاء العالم تقريبا- حلمنا جميعا لفقراء العالم بأسرة واحدة ولقمة واحدة وشمس واحدة، ونشيد واحد وغَدٍ واحد.

- كثيراً ما تطل عليّ «فاطنة قنديل» من قبرها تذكِّرني بأنها نبَّهتني منذ الصغر أن «العبرة بالخواتيم»، ثم تدعو لي قبل أن تنصرف إلى رقدتها: «اللهم أحسن ختامه».

- معجـزة القـرن الأمريـكي حققتهـا الولايـات المتحـدة -جـدًّا في الـشر- بمسـاعدة الحلفـاء والعمـلاء. الحـرب العالميـة كسـبتها أمريـكا دون أن تغـادر «مطرحهـا»، ودون أن تفقـد في الحـرب جنديًّـا واحـدًا.

- أحـب أكل بيتـي الـذي غالبًـا مـا أطهـوه بنفـسي؛ فزوجتـي أرق مـن أن أدفـع بهـا لتقـوم بهـذه المهمـة اليدويـة الشـاقة؛ إذ أنـا لسـت في حاجـة إلى أن أتنـاول وجبـاتي خـارج الـدار.

- الدعـوات مـن السـفارة الأمريكيـة وباسـم السـفير الأمريـكي نفسـه، دعـوة عشـاء للعبـد للـه ابـن الشـيخ الأبنـودي والمـرأة الأمّيّـة فاطنـة قنديـل.

- قلـت: لابـد أنهـم أخطـأوا في الاسـم والعنـوان، فأنـا لا أدعـو للعشـاء في منـزلي إلّا صفـوة الأحبـاب، وأمريـكا المبجلـة لم تـترك لنـا «خـرم إبـرة» ننفـذ منـه إلى حبهـا.

- مـا إن تجاهلـت الدعـوة حتـى لحقـت بهـا دعـوة أخـرى -طبـق الأصـل- تحمـل نفـس العنـوان -بالإنجليزيـة طبعًـا- (للقـاء رمـوز الثقافـة المصريـة) يـسرّ.. إلـخ.. حتـى وجـدت نفـسي أتسـاءل: وهـل أنـا مـن هـذه الرمـوز؟ متـى وأيـن؟ أنـا رجـل مـن عامّـة النـاس يتوجـه إلى عامّـة النـاس ببعـض الكلـمات.

- إن أمريـكا تمكّـن لأعدائنـا مـن أرضنـا، تحاصرنـا في مـصر والعـالم العـربي راغبـة في إعـادة صياغتنـا، مـع مـا يتـماشى مـع مصالحهـا بصفتهـا حاكـم العـالم الأوحـد، تحـاول شـقّ صـف أمتنـا والتفرقـة بـين مسـيحيينا ومسـلمينا، واسـتغلال أوضاعنـا الاقتصاديـة أسـوأ اسـتغلال، وأنـا ضـد كل

ذلـك؛ أي أننـي ضـد أمريـكا، فـماذا يريـد منِّـي سـفيرها؟ أن «يتوِّبنـي»؟ أن يجعلنـي أكتشـف أن كل ذلـك إنمـا هـو في مصلحـة أهـلي الفقـراء وفي مصلحـة مـصر المجاهـدة؟ أم أنـه..

- أيهـا الإخـوة المواطنـون الذيـن أهـدوا أسـماءنا للسـفارة الأمريكيـة، مـرة أخـرى أردد: أنـا مواطـن مـصري صالـح، مـا زالـت آثـار طـين الصعيـد القديمـة عالقـة بأقدامـي المشـققة، ليـس لـدي مـا أرفعـه للسـفير الأمريكي، ولا أجيـد السـماع إلا للفلاحـين أمثـالي.

- العرب مخترعو ومقدسو الثبات، ولا يفزعهم سوى التغيير.

- الزمــن يمــضي لا يفهمــه إلَّا النابهــون أصحــاب القضيــة، مــن أجــل هـذا يتقـدم أعداؤنـا كل يـوم بـلا ضجيـج، ونتقهقـر نحـن ونفـرط ونبيـع ونُهـدي، حتـى ليـكاد الوطـن أن يمـر مـن تحـت بوابـة القـرن الجديـد هيـكلًا عظميًـا، وقـد نبـت في رأسـه «قـرن جديـد».

- ننظـر في الـصراع العـربي الإسرائيـلي عـلى أننـا نصـارع قـوة، وكان يجـب منـذ البدايـة أن نـدرك أننـا نصـارع عقـلًا.

- كان البيروتيّـون يشـفقون عـليّ مـن قلـة الفنـادق وتواضعهـا، لم يعرفـوا أني شـاركت عـم إبراهيـم أبـو العيـون «حجرتـه» (أثنـاء حـرب الاسـتنزاف) لليـلات طـوال، لم تكـن البراغيـث ولا النامـوس تمكّننـي مـن اختطـاف لحظـات نـوم إلى حـين تضمحـل الذاكـرة ويهمـد الجسـد، وتكـف أصـوات الاشـتباكات والانفجـارات، لم يعرفـوا أن علاقتـي بالفنـادق حديثـة جـدًا وقليلـة جـدًا.

- حكيـت لأصدقـائي مـن أهـل الجنـوب اللبنـاني عـن تلـك الليلـة التـي حصرتنـا فيهـا دانـات المصريـين والإسرائيليـين، وعـن ذبـح النخيـل والأشـجار

وتهدّم الجدران فوق خندقنا البدائي الفقير ورؤيتي الموت رأي العين.

- حدثتهم عن «ولاد الأرض»، وعن الكابتن غزالي، وأغنياته التي كانت تجوب أنحاء مصر، عن الشهداء ولمِّ أشلائهم على عربات الكارو، بينما راديو العاصمة يذيع «سوّاح»، تمامًا كما يحدث هناك، وكيف كان أهل السويس القليلون يتندّرون على أهل العاصمة ويقولون عنهم «الإخوة في القطر الشقيق القاهرة»!!

- قالت زوجتي مشيرة إلى البحر: يبدو أن هذا الشاطئ جيد. قال «علي»: كان هذا الشاطىء رائعًا فعلًا؛ بل من أجمل شواطئ لبنان، ولكن الإسرائيليين سرقوه!

- اعتبرته تعبيرًا شعريًّا رمزيًّا أو أنهم في الاجتياح سرقوا أعمدة الرخام وخشب المنشآت، كما يفعلون دائمًا.

- سألته: كيف سرقوه؟

قال بغضب هادئ: سرقوه، سرقوا رماله، استطاعوا شفط رمال الشاطئ ونقلها في السفن إلى إسرائيل.

- قلت متعجبًا: فعلًا في السفن؟

قال: في السفن واللواري وبكل الطرق.كان رمل هذا الشاطئ نادرًا، ولأنهم يهود يفهمون حتى في نوعية الرمال وقيمة التراب؛ سرقوا أجمل رمال لأجمل شاطئ بلبنان.

- حين وجدني صامتًا متحيّرًا نظر نحوي ربما للمرة الأولى منذ تحركت بنا السيارة من أمام الفندق ببيروت، ثم قال وقد علت نبراته: ليست بالمرة الأولى التي تسرق فيها التراب، ماذا عن سرقة التربة الزراعية

من أرض الجنوب؟ ألم تسمع عن ذلك؟ سرقة التربة اللبنانية الصالحة للزراعة من «سهل الدردارة»، و «حرج الخيام» في «مرجعيون»، ونقلها إلى المنطقة الزراعية التي استحدثتها إسرائيل خلف الحدود الدولية قبالة «كفر كلا» و «مستعمرة المطلة»؟!

- نعم يا أستاذ إنهم يسرقون التراب، فهل تظن أن من يسرق التراب يمكن أن يعيد لنا الأرض؟ لابد من استردادها باليد والسلاح والدم والشهيد.

- إن حربهم ضدنا لم تتوقف لحظة؛ بالمخدرات حينًا، وبالإيدز حينًا، وبالسموم التي تعبر إلينا في البذور والأسمدة والمبيدات أحيانًا.

- أقول لنفسي أحيانًا: لماذا لا تعلّق لافتة على ظهرك تتدلى من خلف عنقك مكتوب عليها: «احذر.. وقوف متكرر».

- هذه هي حال الشِّعْر معي؛ يتوقف بلا مبرر، ويعود بلا مبرر.

- علاقتي بالشعر كعلاقتي بأمي؛ تتذكرني في موتها البعيد فتأتيني لأتذكرها.

- الضمير هو لحظات تذكّر عميقة قادمة من تلقاء نفسها، تملأ الوحدة وتضيء الغرفة وتحيي الذاكرة ليسطع الشعر.

- ليس أمتع من لحظات الإبداع للمبدع؛ متعة المتع، حين يطل عليك من حلق الباب ويهمس: «مساء الخير أيها الشاعر»، ويجلس لتستقبله.

حكمة الأبنودي (٢)

- إحنـا لا نقـدر نكـون صادقـين صـدق السـيرة الذاتيـة، ولا الجمهـور هيقبـل منـك بعدمـا رسـملك صـورة معينـة، إنـك تبـان أمامـه بصورتـك الحقيقيـة، عـلى طـول يسـقطك.

- المجتمـع الآن تغـير، مـا حـدش هيسـمحلك إنـك تكـون شريـف قـوي.. تبقـى شريـف عـلى قـدر الإمـكان.

- الذيـن يهاجموننـي ويحاولـون النَّيْـل منـي، أؤكـد لهـم أنـه يوجـد في مـصر رجـل لا يُمـزَّق اسـمه عبدالرحمـن الأبنـودي.

- حاولـت هـذه المدينـة أن تلـوي ذراعـي وتقـودني إلى حيـث تريـد، اسـتطعت بـإرادة قويـة واقتنـاع كامـل أن أسـترد ذراعـي عفيـة صحيحـة.

- أنا في الحقيقة مدين لكل سنوات العوز والشقاء الأولى.

- الشـيخ الأبنـودي أرسـل لنـا أربعـين جنيهًـا؛ لأشـتري كتبـا وأعمـل مرتبـة وأقعـد، رحـت اشـتريت سـور الأزبكيـة كلـه، الكتـاب بقـرش وقرشـين، وجبت صنـدوق كبـير مـن بتـاع «باتـا» بتـاع «الجـزم» ومليتـه كتبًـا وشـحنته عـلى قِنـا وشـحنت نفـسي وراه، وهـذه المكتبـة مسـئولة عـن أي مثقـف خـرج مـن قنـا بعـد ذلـك؛ لأنـني تركـت هـذه المكتبـة للآخريـن لاسـتعمالها.

- سيد خميس لولاه لم تكن القاهرة تعرفني، لست وحدي، ولكن معظم جيل الستينيات، وهو الذي عمل دار النشر التي طبعت «رباعيات» صلاح جاهين، وما كنّاش لاقيين حد يطبعها، و«الأرض والعيال» للأبنودي، و«صيّاد وجِنّيّات» سيد حجاب، وكان دليلنا ومرشدنا في هذه المدينة، وله أفضال غير عادية على الجيل وأنا أولهم.

- كان سيد خميس بيصرف علينا، كان يروح يشحن عربية قوطة من بلده «برقاش»، ويطلع بيها مع الفجر لسوق الخضار في روض الفرج ويبيعها، ثم يأتي ونحن -أصدقاؤه عز الدين نجيب وخيرى شلبى وأنا وآخرون -لا زلنا نائمين، يصحّينا، نطلع نشرب الشاى الفريسكا على المقاهي، ويفطّرنا ويغدينا ويعشّينا، ويشتري لنا الكتب. كان راجل. ونعم الدور الذي لعبه في حياتنا، لهذا سيد خميس دائمًا في عيني، ولولا كسله الأصيل لكان من أهم نقادنا.

- لابد أن تحب الشيء، ولولا عشقي للشِّعْر لما كتبته، ولولا عشقي للغناء ما كتبت الأغاني، كل إنسان يعشق حاجة، وعشقه لها هو اللي يخليه يبقى في الصف الأول. على قدر عشقك تقرأ لكي تكمل ما ينقصك، وعلى قدر عشقك لتراثك تضيع ٢٢ سنة من أحلى سنوات العمر في جمع «إلياذة العرب» الخالدة: «السيرة الهلالية». هل أنا كنت مجنونًا مثلًا؟ لا. إنما هذا عشق؛ لأن هذه ملحمة.. الإلياذة والأوديسا لا تصلان إلى فصل في السيرة الهلالية.

- حبي للسيرة الهلالية ساعدني في اكتشاف مرة أخرى للصعيد،

خصوصًا أن ارتباطي بهذا العمل قد بدأ بعدما انخرطت في المدينة، وبعدما ربنا وفّقني في هذه المهمة، فوجئت بجماعة من الأكاديميين الذين أرادوا السطو على هذا العمل، لدرجة أنهم طلبوا مني ما جمعته مقابل منحي درجة الدكتوراه.. وطبعًا رفضت.

- كنت قد غادرت الصعيد عام ١٩٦٢، وحين عدت إليه اكتشفت أنني لم أكن أعرفه.

- ثلاثة يكرهها الرجل الصعيدي: الكذب، الجدب، العقم.

- شنب الرجل الصعيدي ينحني أمام المرأة في شئون الأسرة.

- العلاقة بيني وبين أمي تخترق أشعاري جميعا جيئة وذهابًا، والتي هي ملهمتي ومعلمي الأول التي أرضعتني الأشعار والطقوس والأغنيات والتراث والفلسفة.

- لأمي مَثَلٌ كانت تقول به: «القحبة ما تتوب، والميّه العِكْره ما تروق».

- تقعد تربّي وتكبّر بناتك، وفى الآخر ييجي الغراب ويخطفهم.

- بكيت كتير.. بكيت على أمي وعلى أبي عندما مات، وبكيت من القهر، أحيانًا تشعر إنك مقهور فتدمع.

- كنت وزملائي أدباء الستينات قد دخلنا جمعية شيوعية تدعى «وحدة الشيوعيين» كانت هي التي قادتني إلى السجن لمدة ٦ أشهر قضيتها في مزرعة طرة، ثم استقلنا من هذه الجمعية عندما اكتشفنا أن المسئول فيها يبلغ عنا البوليس.

- السجن أنضج تجربتي الشعرية.أنا أكثر واحد فرح بتجربة السجن،

تعلّمت جدًّا من تجربة السجن؛ لأن كل القناعات الهايفة وقعت لوحدها، كنا نرسم الحرية حمامة منطلقة من وراء القضبان، لكن بعد تجربة السجن طلعت الحرية حاجة تانية خالص؛ إنك تكون في الحمّام الصبح وبتقرا الجرنال، أو بتدخن سيجارة، أو تطلع سلالم بيتك وتقف تنهج أمام الباب، الحنين لهذه الأشياء هي دي الحرية، إنما السجن نفسه تجربة عظيمة الشأن؛ لأن العالم كله يتلخص في عنبر أو في زنزانة، لكن تجربة الزنزانة قاسية جدًّا لأن الزمن فيها لا يتحرك.

- عبدالحليم إنسان بمعنى الكلمة، عرفت هذا الفنان العظيم ١٩٦٥، ثم سرعان ما دخلت الاعتقال عام ١٩٦٦، ولم يهرب من صداقتي أو يخاف كما فعل البعض، وكان يرسل لي السجائر ويتوسل إلى الأجهزة والمسئولين أن يسمحوا له بذلك.. بصحيح رجل جدع.

- عبدالحليم يشبهني كثيرًا في رحلتي، وهذا كلام أول مرة أذكره؛ فقد كنت أنا وهو على جانب كبير من الحساسية، هو بسبب اليتم والفقر، وأنا بسبب ابتعاد الشيخ والدي عن والدتي؛ فقد كان هو في قنا ونحن في أبنود، فحين يكون كل الأولاد من حولهم آباؤهم ويكون الطفل محروما من الأب ولا حوار بينهما يتكوّن لديه هذا العالم الخاص، عبدالحليم كان لديه عالمه الخاص، فالغربة أحيانًا تصيب المرء بالانفراد بالذات، وفيما بعد تلتفت إلى أشياء لم يلتفت إليها الآخرون، فالتفت هو إلى الموسيقى، في الوقت الذي التفتُّ أنا فيه إلى غناء الفلاحين من حولي، وتلك النصوص الرائعة التي يغنّيها الفلاحون وراء السواقي وتحت الشواديف، إلى آخره، مع الوقت تهديه خطاه إلى أن يدخل

معهد الموسيقى بالمصادفة، وأظل أنا أيضًا على حالي حتى يحدث العدوان الثلاثي ١٩٥٦ فأجدني أكتب كلامًا، وأقف أقوله وسط الناس، وأجد استحسانًا كبيرًا فأستمر، وأذكر أن والدي قام بتمزيق أول ديوان لي لأنه ليس شعرًا بالفصحى، وكسرت عمود الشِّعْر، واعتبر أبي هذا جريمة، أيضًا حليم ضربوه بالطماطم وأنزلوه من على المسرح لأنه لم يغن لعبدالوهاب، وكان يريد أن يغني لذاته، مع الوقت بدأ حليم في وضع أقدامه على السلم، عندما تأتي له أية فرصة في الإذاعة أو كذا، نفس الشيء عندي، فقد اتجهت لدراسة الشعر العربي، وتعلمت في مدرسة وذهبت إلى الجامعة وبدأت في كتابة شعر حقيقي وتركت الفصحى، واتجهت إلى الكتابة بلغة أهالي قريتي وأحبابي، ثم فجأة يأتي النجاح وبعده يبدأ الناس في ترديد اسمك، وهكذا عبدالحليم، ولذلك كان من الطبيعي أنه عندما أذهب إلى منزله أجد ديواني الأول «الأرض والعيال» بجوار سريره، ومخططًا بقلمه تحت أبيات أنا أعتبرها من أفضل أبيات شعري على الإطلاق، ومن هنا كانت البداية بيني وبين حليم، ثم اختلفنا بطريقة نظيفة فيما بعد، وكل واحد اتجه لطريق وسعى إليه، بعد حرب ١٩٧٣ أعادني من لندن لأكتب له «صباح الخير يا سينا»، وودّعني في نهاية الغنوة وقال لي: «أنا آسف يا عبدالرحمن إني غنتها بصوت ضعيف لأنني مريض»، فقلت له: «أرجوك أن تغني بهذه الطريقة دومًا لأن (صباح الخير يا سينا) من أكثر الأغنيات العاطفية وكأننا لا نغني للوطن»، وودّعني، وكان ذلك آخر لقاء.

- لاشك أن موقفي المعارض قد أثار أحقاد الآخرين الذين بدأوا يتساءلون:

كيـف أعـارض وأنـا أنـال كل هـذا التكريـم سـواء بخصـوص جائـزة الدولـة التقديريـة، أو جائـزة مبـارك، وكنـت أرد عليهـم بقـولي: هـذه الجوائـز لا تعطيهـا الحكومـة بـل يعطيهـا المثقفـون، وبنـاء عـلى جهـدي وتفـردي في الشـعر.

- في الشـعر أنـت والـورق والقلـم وجهًـا لوجـه، لا وسـيط، ولكنـك في الأغنيـة عضـو مـن المجموعـة التـي تقدمهـا.

- الشـعر ليـس شـيئًا عفويًـا وبسـيطًا كـما يعتقـد النـاس، الشـعر عمليات حسـابية معقـدة تتـم داخـل الشـاعر الحقيقـي الأصيل.

- رأيـت أن كتابتـي للأغنيـة هـي سـبيلي للإنفـاق عـلى رحلتـي الأدبيـة ورحلـة الشـعر.

- حسـين كـمال أرسـل لي «شيء مـن الخـوف» السـبت كي أكتـب الأغـاني، وأسـلّمها الأربعـاء، أنـا قلـت إن هـذا الفيلـم ممكـن يبقـى فيلـم مـا حصلـش، وقفلـت عـلى نفـسي البـاب، ولا أخـرج إلّا للتواليـت أو آكل لقمـة، وعـلى ليـل الثلاثـاء كنـت خلّصـت، وكان عنـدي فرصـة للمراجعـة يـوم الأربعـاء، وحذفـت مشـاهد وأضفـت مشـاهد، ورحـت لحسـين كـمال وقـرأت لـه الفيلـم مـن أولـه إلى آخـره، لم ينطـق، وبعدمـا خلصـت قـام يقبّلنـي.

- هاتفنـي محمـود درويـش قائـلًا: «أفسـدت عـليّ الدنيـا يـا لعـين، لم يفسـد عـليّ أحـد قصيـدة في حيـاتي».

قلـت لـه: مـاذا حـدث؟ قـال: كنـت أكتـب قصيـدة عـن أمـي، قصيـدة (أحـن إلى خبـز أمـي)، ووجدتـك اسـتنفدت كل مـا يقـال في قصيـدة (يامنـة) ولا أسـتطيع تجاهـل مـا كتبتـه، هـذا مـا كنـت أريـد قولـه.

قلت: لقد كتبتها في عشر دقائق على ترابيزة المطبخ حين علمت بوفاة أمي.

- أنا طول عمري مهموم بالوطن والأدب الشعبي، وأؤمن بأنه لا قيمة للأدب إذا لم يصل للناس، أحب أن يقرأ قصائدي المثقفون والحفاة العراة.

- لعب الحظ دوره الكبير حين نشر لي الشاعر الراحل الكبير صلاح جاهين أولى قصائدي في مجلة «صباح الخير»، وفي باب كان يحرّره تحت عنوان «شاعر أعجبني»، وقد أحسست أنني قد وضعت قدمي فوق مشوار الشعر.

- إن صلاح جاهين هو أول من «رَصَّ» طوبًا وبنى بالأسمنت في بنيان شعر العامية، وهو شاعر نادر أن تجود الأيام بمثله.

- فؤاد حداد هو الرائد الأول لحركة الشعر العاميّ، وشعره دفاع ضد كل من يتهموننا بأننا نقطع جذورنا بالتراث العربي، وأنا لو بيدي لأقمت لفؤاد حداد تمثالًا.

- نجيب محفوظ علَّمني الجدّيّة والالتزام والصدق والتواضع.

- في عام ١٩٦٤ أصدرت ديواني الأول «الأرض والعيال» فأحدث ضجة لا مثيل لها، وبالتالي بدأوا ينظرون إليّ كشاعر يستبشرون فيه خيراً.

- لا أكتب بقرار لأني تحويشة الناس الغلابة.

- رأسمالي الحقيقي هو إعجاب الآخرين بما أكتبه وأخرجه من دواوين.

- لا أفضّل أن تكون لي مدرسة؛ لأن لكل منا خصوصيته وموهبته التي منحها الله له.

- حـب النـاس هـو ثـروتي الحقيقيـة، ومـا زلـتُ أفخـر بـأن النـاس قـد لا يعرفـون العـم نجيـب محفـوظ وعظمتـه، ويوسـف إدريـس وأعمالـه، وربما جيـلي بأكملـه، ولكـن أنـا يعرفنـي الحفـاة والعـراة.

- «يـا خـال» أجمـل لقـب حصلـت عليـه في حيـاتي، وأجمـل مـا خرجـت بـه مـن الدنيـا.

- نهال.. أقرأ عليها أوّلًا كل إنتاجي الجديد، هي أول قارئ وأول ناقد.

- عبدالناصر له مجدافان عبر بهما إلى أهدافه، هما الفقراء والشباب.

- حـين علـم عبدالفتـاح السـيسي بوجـودي في القاهـرة طلـب رؤيتـي (أثنـاء حملتـه الانتخابيـة) وذهبـت إليـه في طريـق عـودتي لبيتـي. قلت له: «مـصر لـن تسـترد عافيتهـا إلّا بالفقـراء والشـباب، وهـما في أسـوأ حـال».

- الفقــراء لم يأخــذوا حقّهــم حتــى الآن، ولــو أصلحنــا شــأنهم لانتظــم المجتمــع كالســاعة.

- نحن لسنا أمّة فقيرة.. ناسنا فقط هم الفقراء.

- ثـورة ٣٠ يونيـو أفسـدت مخطـط الإخـوان لبيـع مـصر عـلى أرصفـة العـالم.

- الإخوان أهل دماء ولديهم غباء إنساني وغشم روحي.

- مقام مصر أعلى من مقام أي حاكم.

- الأدب والفــن هــما رمــز للحــق والخــير والجــمال، وهــذا يتطلــب أن يكــون انتــماء الفنــان نفســه للحــق قويًّــا بــل ومطلقًــا.

- القضيــة ليســت قضيــة نصــح نــوح لابنــه بركــوب الفُلــك، وإنمــا هــي قضيــة اختيــار ذاتي؛ فالحــلال بــيّن والحــرام بــيّن.

- الواقـع الاقتصـادي نهـش منـك أصدقـاءك وقدرتهـم عـلى الحـب وقدرتهـم عـلى العطـاء لـك.

- المجتمع انقلب إلى مجتمع استهلاكي في ثوانٍ، مع عدم الثقافة، مع عدم الوعي، مع فقدان الهدف القومي.

- الناس انفرط عقدها، وتحللت قيميًّا وأخلاقيًّا.

- لا يا سادة، لمصر حراسها، وللحركة الثقافية المصرية عيونها، وإذا كانت لديكم نواياكم لإضعاف مصر وتغليب الباطل على الحق؛ فإن لدينا نوايانا للدفاع عنها، ولن نترككم تتزعمون عصابات البلطجة والنصب الأدبي وقطع الطريق على الموهوبين.

- قطعنا كل صلتنا بالماضي، لم نطوِّرْ الموروث ولم نزاوج بين الأمس واليوم؛ ففقدنا الحكمة والرائحة القديمة.

- ابن عروس: ياللي تعيّط قدّام الباب، عيّط.. وكون فاهم ما يفسد بين الأحباب، غير النسا.. والدراهم.

- أحبّوا أحياءنا كي نصدق حزنكم على أمواتنا.

- النيل وهبنا كل شيء، وبالتفاتة يسيرة نحوه نكتشف ماذا فعلنا به؟!

- نظل نطارد الزمن، ونكتشف -في النهاية- أننا لم نبرح أرصفة الاستقبال والوداع.

- الحاج الضوّي الكبير: أنا اللي بانصح الناس..لكن عاوز ميتين ناصح.

- أجمل البلدان هي تلك التي لا تصادفك فيها الغربة.

- فلا مصر ستتخلى عن دورها، ولا الآخرون سيتخلصون من إحساسهم بتفوقها الإنساني.

- الحرب في بلدنا تنسب للرؤساء وليس للشهداء.

- إذ لسنا جميعًا «أولاد حلال».

- بالحوار وليس بالقوانين يعود الصفا لقلوب المواطنين.

- الصمت عن الحق جريمة الجرائم.

- الحاكم المُلْهَم هو الذي يفرحه صخب شعبه وصيحاته، ويستريب فيه حين يصمت.

- متى سيعرف كلٌّ منّا مكانه الحقيقي في إمكانية التقدّم.

- لقد أدرك المصري القديم -جدّنا- أن الحياة دنيا ودين.

- هل يمكن -فعلًا- في المستقبل أن يصبح الإنسان كائنًا سياسيًّا في بلادنا.

- صارت بلادنا حقل التجارب شبه الوحيد لأسلحتهم الجديدة بالغة الصلف والتكبر.

- حين أنظر إلى كل ناتج النفاق الاجتماعي لا أرى سوى تلك العناصر التي دفعنا بها إلى مقدمة تجمعاتنا دون مصر.

- فى الدول المتخلفة يتقدم الأفّاقون الصفوف.

- اكتشاف الطرق النبيلة لتحمّل المعاناة يشي بجمال الصبر.

- يا سيادة الأمير أو الكبير أو الوزير أو المدير أو الخفير، مادمت قابعًا على كرسي السلطة فأنا مسئوليتك.

- كان الغناء وجه الفقراء! راح زمان وجاء زمان.

- كنا آخر جيل عاش على القصص والإبداع الذي ضاع.

- خدمة الوطن شيء، والبحث عن الفرقعة للترويج والتسويق شيء آخر.

- الشعب المصري يتناقض طبيعة وطبعًا مع الإسرائيليين.

- كنا نغنّي الوطن من قلوبنا، ولم نكن ننتظر من الوطن أن يدفع ثمن حبنا له.

- من الذي قتل الشعر؟ النابهون أم نحن، أهل التخلف والوطنية؟

- ترحل عيوننا إلى القدس كل يوم في خزي الصمت وقد سقطت القصيدة -ورقة التوت- عن عورة الأوطان والأهل.

- الصدق نشاز الدنيا.

- الشاعر الصادق مخلوق ملعون مريب.

- أخشى أنني لو كتبت قصيدة حقيقية سوف أؤرق الأمّة وأزعجها.

- لا يليق الحقد والحسد إلّا بأقزام وُلدوا صغارًا و يموتون صغارًا.

- إنّ من حقّ الأبناء والزوجات أن يرثوا المال؛ فهذا حقهم، وأن يقيموا الذكرى السنوية في بيوتهم، وأن يفخروا بآبائهم وأزواجهم وأقاربهم، لكن الاسم والقيمة الفنية والتاريخ.. كلها ملك لأهلها من الغرباء.

- وصيَّتي الوحيدة لآل بيتي: ألّا يدخلوا بعد موتي معركة مع أحد، ليتركوا أعمالي تنال عقابها أو ثوابها وتدافع عن وجودها بقيمتها الحقيقية، هي التي تحدد وتقرر أن تعيش أو تموت.

مراجع المقدمة

١- مجلة«الإذاعة والتليفزيون» عدد ٤١٨٠ - ٢٠١٥/٤/٢٥.

٢- مجلة «الهلال» عدد يونيو ٢٠٠٨.

٣- جريدة «الميدان» ٢٠٠٠/٤/٢٥.

٤- جريدة «الأسبوع» ١٩٩٩/١/٤.

٥- مجلـة «نصـف الدنيـا» مـن حـوار عمـرو عبدالسـميع مـع عبدالرحمـن الأبنودي.

٦، ٧ - السابق.

٨ - حوار الأبنودي لمحمود الشربيني - «الوفد» ١٩٩١/٤/١٨.

٩ -الأبنودي لحنفي المحلاوي - «الأخبار» ٢٠١٠/٨/٢٦

١٠، ١١- «نصف الدنيا»، السابق.

(*) مجلة «الإذاعة والتليفزيون» حوار عفاف علي- ٢٠١٠/٥/٢٢.

١٢، ١٣ - «نصف الدنيا»- السابق.

١٣ - «الإذاعة» -السابق.

١٤- «الأسبوع»- السابق.

١٥- «النصـف الآخـر» ملحـق «نصـف الدنيـا» - حـوار أسـامة الرحيمـي مـع الأبنـودي.

١٦- «الوفد»- السابق.

١٧، ١٨، ١٩ - «الهلال»- السابق.

٢٠، ٢١ - «الإذاعة والتليفزيون» - خيري شلبي- ١٩٩٤/١٠/١٥.

٢٢- «الوفد»- السابق.

٢٣- «النصف الآخر»- السابق.

٢٤- «الوفد»- السابق.

٢٥- «النصف الآخر»- السابق.

٢٦- «الأخبار»- السابق.

٢٧- «الأخبار»- حنفي المحلاوي- ٢٠١٠/٨/٢٥.

٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١ -«الوفد»- السابق.

٣١- «الهلال»- السابق.

٣٢ - «الوفد»- السابق.

٣٣- «النصف الآخر»- السابق.

٣٤ - مجلة «الإذاعة»- حوار سماح جاه الرسول مع الأبنودي- ٢٠١٤/٦/١٥.

٣٥- «الهلال»- السابق.

٣٦، ٣٧، ٣٨ - السابق.

سيرة ذاتية للكاتب



إبراهيم عبد العزيز

صحفي فى مجلة الإذاعة والتليفزيون لمدة٣٤سنة

باحث أدبي، له عدد من المؤلفات :

١- رحلة في عقول مصرية - سلسلة تاريخ المصريين - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩١.

٢- رسائل خاصة جدا - كتاب اليوم ١٩٩٢.

٣- الملف الشخصي لتوفيق الحكيم - دار المعارف ١٩٩٢.

٤- يحيى حقي .. ذكريات مطوية - مشترك مع نهى حقى - دار سعاد الصباح ١٩٩٣-طبعة ثانية بهيئة الكتاب ٢٠١٢

٥- رسائل يحيى حقي إلى إبنته - مشترك مع نهى حقى- هيئة الكتاب ١٩٩٦ - طبعة ثانية بمكتبة الأسرة ٢٠٠١.

٦- أوراق مجهولة للدكتور طه حسين - دار المعارف ١٩٩٧- طبعه ثانية بدار نفرو ٢٠٠٩ باسم « أحاديث رمضان».

٧- أيام العمر... رسائل خاصة بين طه حسين وتوفيق الحكيم - هيئة الكتاب ١٩٩٧ - طبعة ثانية بمكتبة الأسرة ٢٠٠٢.

٨- أشعار توفيق الحكيم - دار قباء ١٩٩٨- طبعة ثانية بعنوان آخر : «ديوان توفيق الحكيم» نفرو للنشر والتوزيع ٢٠٠٧.

٩- رسائل طه حسين - دار ميريت ١٩٩٩- طبعة ثانية بمكتبة الأسرة ٢٠٠٠.

١٠- في براح الفكر.. كتاب لم ينشر للسندباد د.حسين فوزى- المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠.

١١- أساتذتى .. لنجيب محفوظ - ميريت ٢٠٠٢-طبعة ثانية بهيئة قصور الثقافة٢٠١٨

١٢- تراث طه حسين .. المقالات الإسلامية والأدبية - دار الكتب والوثائق القومية ٢٠٠٢.

١٣- رصاصة في قلبين.. لتوفيق الحكيم.. مسرحية لم تنشر - دار الشروق ٢٠٠٥.

١٤- أنا نجيب محفوظ .. سيرة ذاتية - المجلس القومي للشباب- الإدارة المركزية للطلائع ٢٠٠٥ - طبعة مختصرة - الطبعة الكاملة بدار نفرو ٢٠٠٦-طبعة أخرى بمكتبة الأسرة٢٠١٢

١٥- صبرى العسكرى .. خمسون عاما بين الأدب والمحاماة.. ألفين للثقافة والنشر ٢٠٠٦.

١٦- حافظ محمود .. أول عضو في نقابة الصحفيين يتذكر - ميريت ٢٠٠٧.

١٧- توفيق الحكيم ضاحكاً - هدية مجلة الإذاعة والتليفزيون عدد ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٧.

١٨- الديمقراطية .. كتاب لم ينشر لطه حسين - طبعة مختصرة- هدية مجلة الإذاعة والتليفزيون عدد ١٠ نوفمبر ٢٠٠٧- الطبعة الكاملة نفرو ٢٠٠٨-طبعة أخرى بمكتبة الأسرة

١٩- سعد زغلول .. حكاية شعب - مجلة الإذاعة والتليفزيون أبريل ٢٠٠٩.

٢٠- رسائل أنيس منصور - دار نفرو ٢٠٠٩.

٢١- مصر في مرآتي .. لطه حسين - الحضارة للنشر ٢٠٠٩.

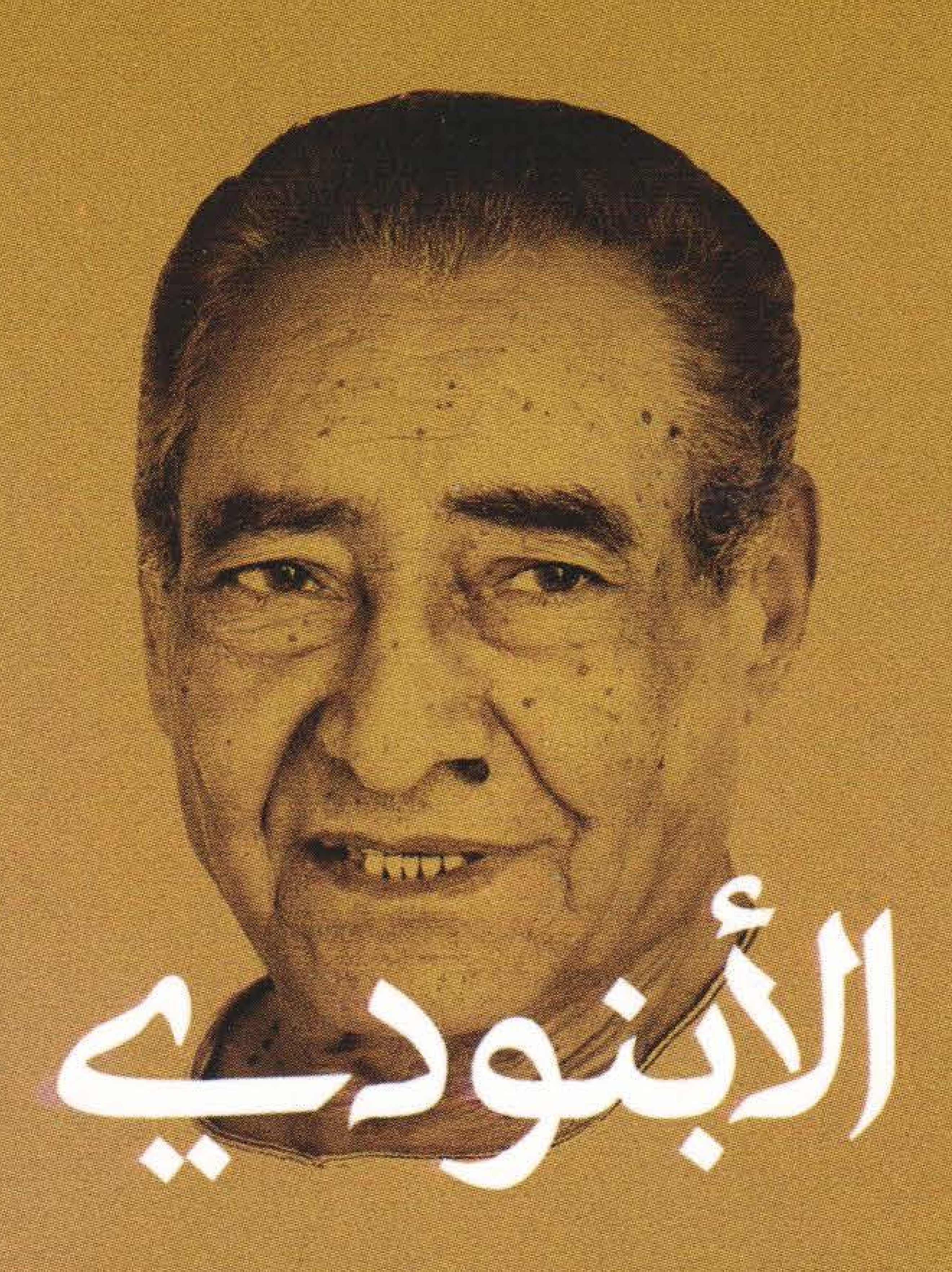
٢٢- الحب في حياة زعماء مصر - دار الحضارة للنشر ٢٠١٢.

٢٣- مذكرات عبد القادر حاتم..رئيس حكومة حرب أكتوبر-الهيئة العامة لقصور الثقافة-٢٠١٦

٢٤- ليالى نجيب محفوظ فى شبرد-دار نشر بتانة-٢٠١٧

٢٥- مذكرات عبد الرحمن الأبنودى..فى طفولته وصباه-بتانة-٢٠١٨

منشورات بتالة
٢٠١٨



الأبنودي

ورغم أن ما أملاه عليّ الأبنودي من مذكراته لم يغادر مرحلة الطفولة والصبا؛ فإن هذه الفترة -فترة الطفولة بالذات في أبنود- تعتبر الفترة الأهم في حياته، والتي كانت منبعًا لإبداعه وعنوانًا على مسيرته الفنية والإنسانية حتى رحيله، أو كما يقول: "مازال عالم الطفولة هو العالم الغني السخي الذي ألجأ إليه دائمًا حين تضيق بي التجارب، ثم إنه مازالت حتى الآن معظم مفردات الطفولة في أبنود أكتب بها، وهي التي أورثتني إياها وملأت بها حجري وجيبي، فأبنود هي تجربتي الثرية، هناك عرفت معاناة الفلاحين.. وتظل أبنود هي عمود الخيمة في تجربتي الشعرية والإنسانية".









